رواية
مكتبة
422
أزاهير الخراب
باتريك موديانو
نوفل

مكتبة 422

أزاهير الخراب

جميع الحقوق محفوظة.

صدرت عام 2018 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2018
سنّ الفيل، حرج تابت، بناية فورست
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
instagram.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

مكتبة ٢٠١٩٥٥

صورة الغلاف: **© Mohamad Itani / Trevillion Images**
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**
تحرير: **ناتالي الخوري**
متابعة نشر: **رنا حايك**
طباعة: **المطبعة العربية**

ر.د.م.ك.: 978-614-438-606-4

Titre original:
Fleurs de ruine
© Éditions du Seuil, 1991

رواية

مكتبة 422

أزاهير الخراب

باتريك موديانو

نقله من الفرنسية بسّام حجّار

نوفل

لكلّ كاتبٍ عالمه الخاصّ. وعالم باتريك موديانو مغرق في الخصوصيّة. الزمن لا يبدأ ولا ينتهي في نصوصه المستسلمة لزئبقيّة الوقت. والمكان هو بطله الأثير. شوارع باريس الناطقة بالحكايات، نواحيها وأزقّتها العتيقة، ملامح الظلّ في أبنيتها، والأشباح التي تجوبها.

ذلك العالَم الروائي الموغل في العتمة، كان مختبئًا في أحد أدراج المترجم والشاعر الراحل بسّام حجّار (1955-2009). هناك وجدت الأسرة، مبعثرًا بين أوراق كثيرة تشرّبت شغف الكتابة، نصّ «أزاهير الخراب» مكتوبًا بخط اليد؛ ترجمةٌ قيد الإنجاز حملتها الأيادي المؤتَمنة إلينا، وحرصنا بدورنا على إيصالها لقارئٍ بات متعطّشًا للترجمات الرفيعة.

الناشر

مكتبة
telegram @ktabpdf
telegram @ktabrwaya
تابعونا على فيسبوك
جديد الكتب والروايات

تابعنا على تيليجرام اضغط هنا

تابعنا على فيسبوك اضغط هنا

إلى زينه
إلى ماري
إلى دوغلاس

عجوز ثرثارة
حوذي رماديّ
أتانٌ تحدِّقُ
حبلُ بئر
زنابق وورود
في دورق خَردَل
تلك هي الطريق
المؤدّية إلى باري

لا مارتين

مساء ذلك الأحد من شهر نوفمبر، كنتُ في شارع «آبيه-دو-ليبيه»، أسيرُ بمحاذاة السور الضخم الذي يُحيطُ بمعهد الصمّ والبكم. إلى يساري، ينتصبُ برج جرس كنيسة «سان-جاك دو هوبا». عاودتني ذكرى ذلك المقهى عند ناصية شارع سان جاك الذي كنتُ أقصده بعد مشاهدتي أحد الأفلام في إستوديو «أورسولين».

على الرصيف أوراق شجر يابسة، أو صفحات محترقة من قاموس غافيو قديم. إنّها ناحية المدارس والأديرة. راودت ذاكرتي بعض الأسماء العتيقة: إستراباد، كونترسكارب، تورنوفور، بو-دو-فير... انتابني ورع ما لاجتيازي أمكنة لم تطأها قدماي منذ بلغتُ الثامنة عشرة من عمري، حين كنتُ أُتابع دراستي في إحدى ثانويّات «جبل سانت جنفييف».

شعرت وكأنّ الأمكنة بقيت على حالها منذ أن غادرتها مطلع الستّينات، وبأنّها هُجرَت في الحقبة عينها، أي منذ أكثر من خمسة وعشرين عامًا. في شارع «غي لوساك» – ذلك الشارع الهادئ الذي اقتلع في ما مضى بلاط أرضيّته ونُصبَت فيه المتاريس – باب فندقٍ سُدّ بالحجارة وفقدت معظم نوافذه زجاجها. غير أنّ اللافتة

لا تزال معلّقة على الجدار: «أوتيل دو لافنير» (فندق المستقبل). أيّ مستقبل؟ ذلك الذي مضى، مستقبل طالبٍ في الثلاثينات نزل في غرفة صغيرة في هذا الفندق بعد تخرّجه في معهد التعليم العالي، وأمضى فيه أُمسيات أيّام السبت بصحبة رفاقه القدامى. لطالما مشينا معًا حول صفِّ المباني، لمشاهدة فيلم في إستوديو «أورسولين». مررتُ بالسياج والبيت الأبيض ذي المغاليق المشبّكة والذي تحتلّ السينما طبقته الأرضيّة. كانت الردهة مضاءة. كان بإمكاني أن أسلك من هناكَ دربَ «فال دو غراس»، إلى تلك الناحية الهادئة حيث اختبأنا، جاكلين وأنا، كي لا يُتاح للماركيز أن يلتقيها ثانيةً. كنّا نقيم في فندق عند آخر شارع «بيار نيكول» ونعيش بفضل المال الذي حصلت عليه جاكلين مقابل بيعها معطفها الفرو. شارع مشمس بعد ظهر أيّام الآحاد. جنبات معرِّشة على جدران المنزل الصغير ذي سطح القرميد قبالة ثانويّة «سيفينيي». أغصان اللبلاب تظلِّل شرفات الفندق. وكلبٌ يأخذ قيلولة عند ممرِّ المدخل.

سلكتُ شارع «أولم». كان مقفرًا. حاولتُ إقناع نفسي بأنّ مثل هذا الأمر غير مستغرب مساء يوم الأحد في هذه الناحية الطلّابيّة البسيطة، ولكنّني تساءلت مرارًا إن كنتُ لا أزال حقًّا في باريس. قبالتي تجلّت قبّة «البانتيون». أحسَستُ بالخوف لوقوفي وحدي، عند عتبة هذا الصرح الجنائزيّ، في ليلةٍ مقمرة، فسلكتُ شارع «لومون». توقّفتُ أمام ثانويّة «الإيرلنديِّين». قُرع الجرس ثماني مرّات. ربَّما هو جرس رهبانيّة الروح القدس التي انتصبت واجهة مبناها الضخمة إلى يميني. بضع خطوات أخرى وإذا بي عند ساحة «إستراباد».

فتَّشتُ عن الرقم 26 في شارع «فوسيه-سان-جاك» وإذا بمبنى حديث، هنا، أمامي مباشرة. لا بدّ من أنّ المبنى القديم قد أُزيل منذ عشرين عامًا.

24 أبريل 1933. انتحار زوجين شابّين لأسباب غامضة.

إنّها لحكاية غريبة حقًّا، تلك التي جرَت حوادثها ليلة أمس في المبنى رقم 26، شارع «فوسيه-سان-جاك»، قرب «البانتيون»، في شقّة السيّد والسيّدة ت.

كان السيّد أوربان ت.، وهو مهندس شابّ أحرز المرتبة الأولى ما بين متخرّجي معهد الكيمياء، قد تزوّج منذ ثلاث سنوات بالآنسة جيزيل س. البالغة من العمر ستًّا وعشرين سنة، والتي تكبُرُه بسنة واحدة. كانت السيّدة ت. شقراء جميلة، طويلة القامة رشيقتها. أمّا زوجها فكان مثال الفتى الوسيم الأسمر. قد انتقل الزوجان مطلع يوليو المنصرم للإقامة في الطابق الأرضيّ من المبنى 26 شارع «فوسيه-سان-جاك» في محترف حوّلاه إلى شقّة. كانا على وفاق تامّ ولا شيء، في الظاهر، من شأنه أن يُعكّر صفو سعادتهما.

مساء السبت، قـرّرَ أوربـان ت. أن يصطحب زوجته لتناول طعام العشاء خارج المنزل. غادراه معًا نحو السابعة ولم يعودا إليه إلّا نحو الثانية فجرًا برفقة رجلين وامرأتين التقياهم خلال السهرة. أثار صخبهم غير المعهود أرق الجيران الذين ما اعتادوا من قبل مثل هذا السلوك من مستأجِرَين اشتهرا باللباقة واللياقة. لا بدّ من أنّ السهرة قد شهدَت تطوّرات غير مرتقبة.

نحو الرابعة فجرًا، غـادر الضيوف. في غضون نصفِ الساعة الصامتِ الذي أعقَبَ الصخب، سُمِعَ دويٌّ مكتوم لطلقتين ناريّتَين. عند التاسعة صباحًا خرجَت إحدى الجارات من شقّتها وحين مرَّت بباب الزوجين ت، سمعت أنينًا، فتذكَّرت على الفور دويّ الطلقات الليليّة واستبدَّ بها القلق فراحَت تطرق الباب. فتح الباب وظهرت جيزيل ت. كان الـدم يسيلُ من جـرحٍ ظاهرٍ تحت ثديها الأيسر. تمتمَت قائلة: «زوجي! زوجي! لقد مـات!»؛ بعد لحظات معدودة،

وصل السيّد مانيان، مفوَّض الشرطة. كانت جيزيل ت. ممدَّدةً على الأريكة وتئنُّ منتحبة. في الحجرة المجاورة، تمّ العثور على جثّة زوجها وهو لا يزال قابضًا بيده على مسدّس. لقد انتحر برصاصةٍ في القلب.

بجانبه، رسالة كُتِبَ فيها: «زوجتي قتلَت نفسَها. كنّا ثملَين. لذا، أقتلُ نفسي. لا تتكبّدوا مشقّة البحث...».

بدا من سَير التحقيق أنّ أوربان وجيزيل ت. قادتهما المصادفة، بعد العشاء، إلى إحدى حانات «مونبارناس». ذاك المساء، مشيتُ من شارع «فوسيه-سان-جاك» إلى المنعطف حيث قبّة «البانتيون» والـ«روتوند»، تاركًا ورائي حدائق «الأُوبسرفاتوار» المعتمة. لا بدَّ من أنّ الزوجين ت. قد سلكا الطريق عينها في تلك الليلة من العام 1933. فوجئتُ إذ وجدُتني في مكان لطالما اجتنبته منذ الستّينات. على غرار «أورسولين» أَوحَت إليّ ناحية «مونبارناس» بقصر الجميلة النائمة. كان قد راودني الانطباع عينه وأنا في العشرين من عمري، عندما نزلتُ لبضعِ لياليَ في أحد فنادقِ شارع «دولامبر»: حينذاك بدَت «مونبارناس» لي أشبه بمحلّة تكابد مشقّة البقاء وينالُ منها العَفَنُ وئيدًا، بعيدًا عن باريس. عندما كانت تمطر في شارع «أوديسّا» أو شارع «ديبار»، كان يُخيَّلُ إليّ أنّني أقفُ في مرفأ بريتانيّ تحت الرذاذ. كانت تفوح من محطّة القطارات التي لم تكن قد هُدِمت بعد، نسمات ونفحات من «بريست» أو «لوريان». أنوار الاحتفالات هنا خَبَت منذ زمن بعيد. أذكر أنّ لافتة «جيميز» القديم كانت لا تزال

معلّقة على حائط في شارع «هويغنز» وقد حذفت رياح البحر حرفين أو ثلاثة من حروفها.

كانت تلك المرّة الأولى – بحسب صحف أبريل العام 1933 – التي يرتاد فيها الزوجان الشابّان ملهًى ليليًّا في «مونبارناس». هل أفرطا في الشرب خلال العشاء؟ أو أنّهما أرادا، ببساطة، أن يخرقا، في سحابة ليلة واحدة، سياق حياتهما الهادىء؟ أكّد أحد الشهود أنّه رآهما نحو العاشرة ليلًا في الـ«كافيه دو لا مارين» وهو مَرقَص، في الـ243 من جادّة «راسباي»؛ أفادَ شاهد آخر بأنّه رآهما في كباريه الـ«إيسل»، شارع «فافين» برفقةِ امرأتين. كان رجال الشرطة يعرضون صورهما للحصولِ على إفادات، وقد لا تكون دقيقة، لكثرة الفتيات الشقراوات والفتيان السُمر الذين يشبهون أوربان وجيزيل ت. لبضعة أيّام، تركّزَت المحاولات في إمكانيّة التعرُّف إلى الرجلين والمرأتين الذين اصطحبهما الزوجان ت. إلى منزلهما، في شارع «فوسيه-سان-جاك»، ثمَّ أُقفل ملفّ التحقيق. لقد استطاعَت جيزيل قبل وفاتها متأثّرة بجراحها، أن تتكلّم، غير أنّ ذكرياتها كانت مشوّشة. بلى، التقيا في «مونبارناس» امرأتين مجهولتين لا تعرف عنهما شيئًا... ونعم، جرّتاهما إلى محلّة الـ«بيرّو»، الى أحد المَراقص حيث انضمَّ إليهم رجلان آخران. ثمَّ ذهبوا جميعًا إلى منزل حيث هناك مصعد أحمر.

هذا المساء، أسيرُ على خطاهما في محلّة كئيبة يُجلّلها برج «مونبارناس» بالسواد. خلال النهار، يحجب الشمس ويفرد ظلّه على جادّة «إدغار-كينيه» والشوارع المجاورة. ها أنذا أترك ورائي الـ«كوبول» التي تنوء تحت ثقل واجهةٍ من الإسمنت قيد الإنشاء، وأكاد لا أُصدِّقُ أنّ «مونبارناس» شهدَت حياةً ليليّةً في ما مضى...

في أيّ فترة بالضبط أقمتُ في ذلك الفندق في شارع «دولامبر»؟ نحو العام 1965 عندما تعرَّفت إلى جاكلين قُبيل سفري إلى فيينّا في النمسا.

كان نزيل الغرفة المجاورة في الخامسة والثلاثين من عمره تقريبًا، أشقر، لطالما صادفته في الممرّ إلى أن تعرّفتُ إليه في النهاية. اسمه؟ شيء من قبيل ديفيز أو دوفيلز.

كان دائمًا أنيق المظهر، يُزيّن عروة سترته بوسام. دعاني مرارًا لمشاركته الشراب، بمحاذاة الفندق، في إحدى الحانات، الـ«روزبود». لم أكن أجرؤ على رفض دعوته، فقد بدا مفتونًا بالمكان.

– الأجواء لطيفة، هنا...

كان يتكلّم بنبرةٍ متأنِّقةٍ مثل أبناءِ الأسر العريقة. أسرَّ إليّ أنّه أمضى ثلاث سنوات في «الجبال» بحيث استحقّ هذا الوسام. لكنّ حرب الجزائر نفَّرته. لم يُشفَ من تبعاتها النفسيّة إلّا بعد زمن طويل. والآن لا بدّ من أن يخلف والده على رأس إحدى شركات النسيج الكبيرة في الشمال.

سريعًا ما أدركتُ أنّ ما يخبرني به يجافي الحقيقة: بقي حديثه عن «شركة النسيج» تلك، مشوبًا بالغموض. غالبًا ما كان يُناقض نفسه بنفسه، فيقول لي ذات يوم إنّه تخرَّج في مدرسة «سان-ميكسان» قُبيل انتقاله إلى الجزائر، ليؤكّد في اليوم التالي أنّه تابع كلّ سنوات دراسته في إنكلترا. كما أنَّ نبرته المتأنِّقة كانت تستحيل أحيانًا إلى رطانة بائع جوّال.

كان ينبغي أن أتسكّع مساء هذا الأحد في «مونبارناس» لكي يظهر دوفيلز – أو ديفيز – ذاك من العدم. أذكر أنّنا التقينا ذات يوم، في شارع «رين» وقدَّم لي «بوكًا» من الجعة – كما يسمّيه – في أحد مقاهي تقاطُع «سان بلاسيد» الكئيب.

كان كباريه الـ«إيسل»، في شارع «فافين»، حيث لوحظ وجود الزوجين، يحتلُّ الطابق السفليّ من مبنى «فايكنغز». أجواؤه السكندينافيّة وديكوره الخشبيّ الشاحب تتباين بشكل صارخ مع ذلك الاحتفال الراقص الزنجيّ. يكفي أن نهبط السلّم لكي ننتقل من أنواع الكوكتيل والمقبّلات النروجيّة إلى معمعة الرقصات المارتينيكيّة. هل التقى الزوجان ت. المرأتين في هذا المكان؟ حدسي يُنبئني بأنّهما التقياهما في الـ«كافيه دو لا مارين»، جادّة «راسباي»، في نواحي «دنفر-روشرو». أذكر الشقّة التي اصطحبنا دوفيلز إليها، جاكلين وأنا، في أوّل جادّة «راسباي» عينها. لم أجرؤ تلك المرّة أيضًا على رفض دعوته، فقد ألحّ طوال أسبوع تقريبًا على أن نزور نحن الاثنين ذات أمسية سبت، إحدى صديقاته التي كان يتشوّق لتعريفنا بها.

فتحت لنا الباب، وفي البهوِ شبه المعتم، لم أتمكّن من رؤية وجهها بوضوح. أذهلني الصالون الواسع الذي دخلنا إليه، بأثاثه الباذخ الذي لا يُشبه في شيء حجرة دوفيلز الصغيرة، في شارع «دولامبر». كان هو هناك. عرَّفنا بعضنا إلى بعض. في الواقع، قد نسيت اسمها: سمراء متناسقة الملامح، وأعلى وجنتها موسوم بندبة عريضة.

جلسنا، جاكلين وأنا، على الكنبة، ودوفيلز والمرأة على مقعدين قبالتنا. بدَت في مثل سنّ «دوفيلز»: خمسة وثلاثون عامًا. كانت تحدجنا بنظرات فاحصة.

– أَلَيْسا رائعين؟ قال دوفيلز بنبرته المتأنِّقة.

رمقتنا بنظرات متفرّسة وسألتنا:

– هل أقدّم لكم شرابًا ما؟

ساد بيننا جوّ من الارتباك. قدَّمَت لنا الـ«بورتو».

شرب دوفيلز جرعةً كبيرة وقال:

– استريحا. إنّها صديقة قديمة...

طالعتنا بابتسامة خجولة.

– حتّى إنّنا كنّا خطيبَين. إنّما وجب عليها أن تقترن بآخر...

لم تحرِّك ساكنًا. لبثت مستوية مستقيمة في مقعدها والكأسُ في يدها.

– زوجها يتغيَّبُ كثيرًا... بإمكاننا انتهاز الفرصة للخروجِ نحن الأربعة... ما رأيكم؟

– نخرج؟ إلى أين؟ سألت جاكلين.

– حيثما تشاءان... ولكنّنا لسنا مرغمين على ذلك.

هزَّ كتفَيه.

– نحنُ على أحسنِ ما يرام هنا... أليس كذلك؟

بقيت مستقيمةً في جلوسها. أشعلَت سيجارة، ربّما لكي تُخفي اضطرابها. احتسى دوفيلز جرعةً أخرى من البورتو، ووضع كأسه على المنضدة الخفيضة، ثمَّ نهض وسار نحوها.

– إنّها جميلة، أليس كذلك؟

أخذت سبابته تداعب ندبة وجنتها، ثم فكّ أزرار قميصها ممسّدًا ثدييها. لم يرمش لها جفن.

ثمَّ أضاف:

– لقد تعرّضنا في الماضي، نحن الاثنين، لحادث سيّارة خطير.

أزاحت يده بحركة مباغتة، وابتسمت لنا مجدّدًا. قالت:

– لعلّكما جائعان.

كان صوتها خفيضًا وقد بدا مشوبًا بلكنة خفيفة.

– هلّا ساعدتني في نقل أطباق العشاء إلى هنا؟ قالت له بنبرة جافّة.

– طبعًا.

وقاما.

– أعددت وجبة باردة. هل يناسبكما ذلك؟

– لا مشكلة أبدًا، أجابت جاكلين.

كان قد ألقى بذراعه على كتف المرأة متوجّهًا بها إلى خارج الصالون، حين عاد ومدّ رأسه من شقّ الباب:

– هل تحبّان الشمبانيا؟

كان قد فقد المتأنِّقة.

– جدًّا، أجابت جاكلين.

– أراكما بعد لحظات.

بقينا وحدنا في الصالون، بضع دقائق. في الواقع، أبذل مجهودًا لتذكُّر أكبر قدر ممكن من التفاصيل.

كانت الأبواب الزجاجيّة المطلّة على الجادّة مفتوحة جزئيًّا بسبب الحرّ.

كان ذلك في الـ19 من جادّة «راسباي». في العام 1965. بيانو فخم في قاع الغرفة. كنبة ومقعدان من الجلد الأسود عينه. منضدة خفيضة من المعدن الفضّيّ. اسم ما: ديفيز أو دوفيلز. ندبة على وجنة. قميص فُكّت أزراره. ضوء كشّاف ساطع، أو بالأحرى مصباح

كهرَبائيّ، لم يكن ينير سوى رقعةٍ من مشهد، لحظة منفصلة، تاركًا الباقي في الظلّ، ذلك أنّنا لن نعرف يومًا مجريات الحوادث، ولا مَن كان هذان الشخصان بالضبط.

خرجنا خلسة من الصالون، ونزلنا الدرج حتّى من دون أن نغلق الباب وراءنا. قبلها بقليل، كنّا قد استقلّينا المصعد، لكنّه لم يكن أحمر كذاك الذي ذكرته جيزيل ت. مكتبة

نُشرَت إفادة نادلٍ كان يعمل في أحد المطاعم-المراقص في الـ«بيرّو» في الصفحة الأولى من إحدى الصحف المسائيّة، في شهر أبريل ذاك من العام 1933. حملَت المقالة العنوان التالي:

لا يزال البحث جاريًا عن الرجلين والمرأتين الذين أمضوا الليل في شقّة الكيميائيّ الشابّ وزوجته.

في قسم شرطة «فال دو غراس»، وبرغم توقُّف التحقيق العدليّ بسبب الانتحار المزدوج، أُفدنا بأنّ الزوجين الشابّين لم يقصدا «مونبارناس» فقط، بل وأيضًا ضفاف الـ«مارن» في الـ«بيرّو» وبأنّهما لم يصطحبا إلى منزلهما امرأتين بل اصطحبا امرأتين ورجلين... ولم تُسفِر أعمال البحث والتحرّي عن أيّ نتائج ملموسة.

قصدنا الـ«بيرّو» على أملِ الحصولِ على تفاصيل مهمّة حول الدقائق التي سبقَت المأساة.

وجدنا في أحد المطاعم-المراقص، ناحية رصيف «أرتوا»، مَن يذكر بدقّة أنّه رأى الزوجين الشابّين.

«وصلا نحو العاشرة مساءً»، أفادنا النادل الذي عَمِلَ على خدمتهما. «لم يكن بصحبتهما أحد. هي جميلة جدًّا، شقراء جدًّا، ناعمة جدًّا... جلسا تحت الشرفة. أمّا إن كانا التقيا هنا الأشخاص الذين اصطحباهم في ما بعد، فأنا لم ألحظ ذلك. كانت أمسية سبت،

وفي مثل هذا الموسم، تكون الصالة مزدحمة بالروّاد. لم يبدوَا لي مبتهجَين أكثر من اللزوم. في أيّ حال، أذكر أنّهما سدّدا حسابهما عند الحادية عَشْرة والنصف.»

من الصعب الأخذ بهذه الإفادة، لأنّها تفترض أنّ الزوجين ت. قد جاءا بدون رفقة إلى الـ«بيرّو»، وبمبادرة منهما. والحال أنّ ما نعرفه عن حياتهما في محلّة شارع «فوسيه-سان-جاك» الهادئة، يحثُّنا على الاعتقاد أنّهما ليسا من روّاد مراقص ضفاف الـ«مارن» ليالي السبت. لا؛ فالمجهولتان اللتان التقيا آنفًا في «مونبارناس» هما مَن اصطحبهما إلى الـ«بيرّو» ذلك المساء، كما أفادَت جيزيل ت. بنفسها. يبقى السؤال عن دوافع النادل للإدلاء بمثل هذه الإفادة: هل اختلط عليه الأمر بشأن الشخصين المعنيّين؟ أو أنّه، على الأرجح، أراد أن يُبعد شبهات المحقّقين عن الأشخاص الذين رآهم برفقة الزوجين ت.: رجلان وامرأتان هم بلا ريب من روّاد المحلّ الدائمين؟ كانت مجهولتا «مونبارناس» تعرفان الرجلين. لكن – تتساءل المقالة – أين يقع المنزل ذو المصعد الأحمر الذي ذكرته جيزيل ت.؟

عند مغادرتهم الـ«كافيه دو لا مارين»، ربّما استقلّ الزوجان ت. والمجهولتان سيّارة أُجرة. لكن، لم يفصح أيّ سائق لأيّ محقّق أنّه نقل، عشيّة المأساة، أربعة ركّاب إلى الـ«بيرّو». كما لم يُفد أحد بأنّه أوصل أزواجًا من الـ«بيرّو» إلى الـ26 في شارع «فوسيه-سان-جاك»، نحو الثانية فجرًا.

في تلك الحقبة، كان السبيل الوحيد للانتقال من باريس إلى «نوجان-سور مارن» والـ«بيرّو» هو الانطلاق من محطّة «الباستيل» أو عبر محطّة «غار دو ليست». كانت القطارات التي تنطلق من «الباستيل» تتبع خطًّا معروفًا بخطّ «فينسين» حتّى «فرنوي-ليتان». قد سلكت هذا الخطّ في مطلع الستّينات قبل أن يُستبدل بـ«الشبكة الإقليميّة السريعة»، وقبل أن تُهدم محطّة «الباستيل» لتحلّ مكانها دار أوبرا.

كان الخطّ يعبر جسر جادّة «دومينيل» التي احتلّت مساحات قناطرها المقاهي والمستودعات والمحالّ التجاريّة. لماذا أعبر غالبًا ذلك الجسر في أحلامي؟ هذا ما كانت تأوي قناطره في ظلّ أشجار الدِّلب:

مختبر «الأرمانيت»

مرأب «الفوت»

«بايرومورت»

«كورادو كاساديي»

مستوصف سيّدة لورد

«ديل أفرسانو»

«لا ريجانس» – مصنع أثاث

«الرخام الفرنسيّ»

«لو كافيه بوسك»

«أليغاتور، غيسكيير» وشركاؤه

«ساڤا-أوتو»

معامل ترقيق المعادن «دومينيل»

«لو كافيه لاباسي»

أجهزة تدفئة «لا راديوز»

معادن خالية من الحديد «تيست»

مقهى ودكّان تبغ «فالاديبه»

ذا مساء من أَمسية الصيف، في الـ«كافيه بوسك»، قُبيل سفري إلى فيينّا، كانت الطاولات مصفوفة على الرصيف، وكان بصري شاخصًا بأنوار محطّة «غار دو ليون» المجاورة...

كان القطار يتوقّف عند محطّة «رويي» ثمّ عند محطّة «بيل إير»، ويغادر باريس عبر بوّابة «مونتانبوافر». يعبر من أمام مدرسة «براي» ويتوقّف بعض الوقت عند محطّة «سان-ماندیه»، على مقربة من البحيرة. ثمَّ يستأنف سيره إلى «فينسين» فمحطّة «نوجان-سور مارن»، عند تخوم الغاب.

والحالة هذه، كان عليهم أن يصعدوا على الأقدام، كلّ «الشارع الكبير»، من محطّة «نوجان» وصولًا إلى الـ«بيرّو»، إلّا إن كان الرجلان قد أتيا لاصطحابهم بالسيّارة.

غير أنّني أميل إلى الاعتقاد بأنّهما حين غادرا الـ«كافيه دو لا مارين» بصحبة المجهولتَين، هبطا سلالم محطّة «راسباي» على بعد أمتار من المقهى.

من هناك، خطّ الميترو مباشر إلى محطّة «غار دو ليست». لقد استقلّوا على الأرجح قطار خطّ «مولوز». إذ يغادر القطار باريس عبر قناة «سان-دوني» نعاين، من أعلى، مسالخ «لا فيليت». كان القطار يتوقّف في «بانتين»، ثمَّ يسير بمحاذاة قناة الـ«أورك»، فـ«نوازي لوسيك»، و«روني-سو-بوا»، ليصل بعد ذلك إلى محطّة الـ«بيرّو». نزلوا على الأرجح عند رصيف المحطّة وتابع القطار سيره عبر الجسر المقنطر الذي يجتاز الـ«مارن». هناك، استدرجتهما المرأتان إلى مطعم-مرقص قريب عند رصيف «أرتوا». أصبحوا ستّة أشخاص، بعد أن انضمّ إليهم المجهولان الآخران.

أذكر جيّدًا رصيف «أرتوا» الذي يبدأ من آخر الجسرِ المقنطر. قبالته جزيرة الذئاب. كنتُ أقصد هذه الجزيرة خلال العامَين 1964 و1965: شخص باسم كلود برنار الذي كنتُ قد بعتُه علبة موسيقى وبضعة كتب قديمة، قد دعانا مرارًا لنزوره جاكلين وأنا. بيته يُشبه الشاليه وإنّما بطنف مزجّجة وشرفات. بعد ظهر ذا يوم، التقط لنا صورة على إحدى الشرفات، لأنّه أراد أن يختبر آلة تصوير جديدة، ولم تمضِ هنيهات حتّى طالعنا بالصورة الملوّنة: كانت تلك المرّة الأولى التي أرى فيها صورة بولارويد.

كان كلود برنار هذا على مشارف الأربعين ويُتاجر بالعتقيّات. كان يملك عددًا من المخازن، ومنصّة عرضٍ في سوق البرغوث في

«سانت-أوين»، ومكتبة للكتب المستعملة في جادّة «كليشي»، حيث تعرّفت إليه. بعد العشاء، كان يقلّنا جاكلين وأنا بسيّارته الجاغوار الرماديّة، في طريق عودتنا إلى باريس. بعد بضعة أعوام، فقدتُ كلّ أثرٍ له. لقد اختفت منصّته من «سوق البرغوت» كما ومكتبته من جادّة «كليشي». أمّا رقم هاتفِ منزله في جزيرة الذئاب فـ«لم يعد في الخدمة».

أفكّر فيه اليوم بسبب جزيرة الذئاب. في إحدى المقالات التي تناولت ما سمّته الصحف بـ«حفلة العربدة المأساويّة»، وردَت تلميحات إلى أنّ الشرطة قد توصَّلَت إلى كشف هويّة أحد المَجهولَين اللذين التقيا الزوجين ت. والمرأتين في مرقص رصيف «أرتوا»: تبيّن أنّه أحد سكّان الـ«بيرّو». نِسبةً إليَّ، لا يمكن إلّا أن يكون أحد سكّان جزيرة الذئاب. باعتبار إفادة النادل المشبوهة، أتساءل في سرّي عمّا إن كان الزوجان ت. والأشخاص الأربعة الآخرون قد قصدوا بالفعل مرقص رصيف «أرتوا» في تلك الليلة. ذلك لأنّني أميل إلى الاعتقاد بأنّ أحد المجهولَين قد اصطحبهم إلى جزيرة الذئاب، لأنّ المنزل ذا المصعد الأحمر موجود هناك.

اليوم، أحاول أن أُعيد ترتيب الحوادث والأمكنة في ذهني، الأمر الذي لم يكن ليخطر ببالي على الإطلاق خلال الفترة التي تردَّدتُ فيها إلى منزل كلود برنار. منذ وقت طويل، لم يعد كلود برنار مقيمًا في الشاليه الواسع المجهّز بشرفات وطنف زجاجيّة. في أقصى الحديقة، نجد اليوم ظلَّة من خشب.

مَن هو مالك الشاليه السابق؟ أهو المدعوّ جاك هنلي؟ صورة جاك هنلي موجودة في نسخ دليل السينما القديمة وتحتها العبارة التالية: «يتكلّم الإنكليزيّة والألمانيّة بلا لكنة». وجه بريطانيّ أصيل: شاربان أشقران، عينان فاتحتان للغاية. عنوانه أيضًا مدوَّن: جاك

هنلي، لي راكيت، جزيرة الذئاب، نوجان-سور مارن (السين)، ترامبلاي 12.00. لكن، قبالة رقم الهاتف عينه، نجده في الدليل تحت اسم أ.ج. دوتيه. من بين سكّان الجزيرة القدامى رصدتُ اسمين آخرين:

ويلام هـ. ترامبلاي 33.44

مانيان ل. ترامبلاي 22.65

كان دوتيه (أو هنلي) وهذان الشخصان يقطنون شطر الجزيرة التابع لـ«نوجان-سور مارن»، أمّا التالية أسماؤهم فيقطنون شطرها الشرقيّ، التابع لـ«بيرّو»:

هيفيل ترامبلاي 11.97

فيرشير أ.ل.، الساعات الهادئة، جزيرة الذئاب (مايو حتّى أكتوبر). ترامبلاي 09.25

كيسلوف ب. ترامبلاي 09.25

كورساك (دو) ترامبلاي 27.19

رايان (جان أ.)، لا برغولا، جزيرة الذئاب، ترامبلاي 06.69.

كانت شركة تنشيط الرياضات المائيّة (ترامبلاي 00.80) تقع في شطر «نوجان-سور مارن». أمّا منزل كلود برنار فعلى ما أظنّ في النطاق الشرقيّ، أي في شطر الـ«بيرّو». في المحصّلة، جزيرة الذئاب تذكّر بتلك الجزيرة من جزر الأنتيل المقسَّمة بين بلدَين: هاييتي وجمهوريّة الدومينيكان، والفارق الوحيد يكمن في أنّها لم تنل استقلالها، لأنّها كانت لا تزال خاضعة لسلطة الـ«نوجان» والـ«بيرّو». كان الجسر يعبرها وهو ما يرسم الحدود بين الشطرين.

باقات من الأشجار، على امتداد الضفاف، تحجب منزل كلود برنار. كان يأتي على متن زورق لاصطحابنا من رصيف «أرتوا». سياج أبيض يحيط بالحديقة المهملة. في الطابق الأرضيّ من المنزل، غرفة فسيحة مطلّة على شرفة تُستخدم كصالون استقبال: كنبة، مقعدان

من الجلد، منضدة خفيضة ومدفأة قرميديّة كبيرة. كان كلود برنار وحيدًا على الدوام في هذا المنزل، وكأنّه يُخيّم فيه. حين يدعونا إلى العشاء، يُعدّ الطعام بنفسه. قال لي ذا يوم إنّه ما عاد راغبًا في الإقامة بباريس، بل يحتاج إلى مناخ الريف وجيرة المياه ليتمكّن من الاستسلام للنوم.

أفترض أنّه لم يبقَ من أثر للريف في الـ«بيرّو» وجزيرة الذئاب. من المؤكّد أنّهم أزالوا منزل كلود برنار، وكذلك الأشجار والجسور العائمة على امتداد الضفاف.

خلال لقائنا الأوّل في مكتبته في جادّة «كليشي»، يومَ عرضتُ عليه الأعمال الكاملة لبالزاك في عشرين مجلّدًا – طبعة «فوف هوسيو» – واشتراها منّي مقابل 3 آلاف فرنك، دار حديثنا حول الأدب. حينذاك، أسرَّ إليَّ بأنّ كاتبه المفضَّل هو بوفون.

كانت كتب بوفون المجلّدة بالماروكان الأخضر تفترش حافة المدفأة القرميديّة في الصالون وهي الوحيدة التي لاحظتها في منزله. بالطبع بدا لي منزل جزيرة الذئاب ذاك مستغرَبًا حينذاك، تمامًا كنشاط كلود برنار في تجارة العتقيّات. غير أنّه غالبًا ما كان يحادثني عن السينما أو الأدب، ولهذا السبب، يكنّ لي بعض المودّة.

أذكر الديكور الخشبيّ الضخم والثقيل لجدران الصالون، وزخارف الحديد، وإنّما بشكل خاصّ، حجرة المصعد المبطَّنة بالمخمل الأحمر – كان معطَّلًا في أيّ حال – والتي كما أخبرنا كلود برنار ذا يوم وهو يضحك، قد استحدثها المالك القديم خصّيصًا لكي تقلّه إلى غرفته في الطابق الأوّل.

ذاك المصعد هو القرينة الوحيدة الباقية من ليلة أبريل 1933 عندما وجد الزوجان ت. نفسيهما في الـ«بيرّو» بصحبة الآخرين. بعدئذٍ عادا إلى حيِّهما المطمئنّ في شارع «فوسيه-سان-جاك» ولكن

دونما جدوى. بعد فوات الأوان. مصيرهما كان قد قُرّر في الـ«بيرّو» في منزل جزيرة الذئاب.

في تلك الحقبة، لم أُعنَ كثيرًا لا بمجريات ما سمَّته الصحف «حفل العربدة المأساويّ»، ولا بدور المصعد المخمليّ الأحمر الذي أرانا إيّاه كلود برنار في مؤخَّر الصالون. لم تكن جزيرة الذئاب وجوارها، في نظرنا، سوى ضاحية بين الضواحي. في طريقنا من المحطّة إلى رصيف «أرتوا» حيث انتظرنا كلود برنار في زورقه، كنت أفكّر وحسب بأنّنا سنسافر قريبًا بفضل المال الذي جنيته مقابل بيع مجلّدات بلزاك وصندوق الموسيقى القديم. عمّا قليل، نبتعد جاكلين وأنا عن الـ«مارن» والـ«بيرّو» لنُقيم في فيينّا حيث أنوي الاحتفاء بسنيني العشرين.

أردت أن أطيل تجوالي ناحية «الضفّة اليُسرى»، ذلك لأنّني ابن «سان-جرمان-دي-بريه». فقد ارتدتُ مدرسة البلدة في شارع «بون-دو-لودي» وتابعتُ دروس الدِّين على يدِ الأب باشو، في شارع الـ«آبايي» (الدير) وفي ساحة «فورستنبرغ». غير أنّني منذ ذلك الحين أجتنب بلدتي والتي بتُّ لا أعرفها. هذا المساء يتراءى لي تقاطُع «أوديون» بمثل كآبة الميناء البريتاني في «مونبارناس» تحت الرذاذ.

إحدى ذكرياتي الأخيرة في «سان-جرمان-دي-بريه» تعود إلى يوم الاثنين 18 يناير من العام 1960. كنتُ في الرابعة عشرة والنصف من العمر وقد هربت من المدرسة. سرتُ حتّى «كروا دو بيرني»، مُحاذيًا مرائبَ مطار «فيلاكوبلاي» الصغير. ركبتُ الباص حتّى بوّابة «أورليان». ثمَّ المترو. نزلتُ في «سان-جرمان-دي-بريه». عند آخر شارع «بونابارت»، انتهيت في مقهى-دكّان تبغ، عند تقاطُع زاوية الشارع والرصيف، مقهى مالافوس، أو على الأقلّ، كان أبي مَنْ لقّبه بذلك. بعد الغداء كنّا نلتقي أصدقاءه في مكتبه فيقول لي:

– اذهب واشترِ لي سيجار بارتاغاس من عند مالافوس.

بعد ظهر ذلك اليوم صادفتُ عند مالافوس مجموعةً من الناس من معارفِ أُمّي المتسكّعين في النواحي، ومن بينهم فتاة دانماركيّة جميلة ذات شعر أشقر قصير وعينين زرقاوين برّاقتين، تستخدم في كلامها عبارات مبتذلة لا تتماشى مع نبرتها الطفوليّة الرقيقة. مفردات عتيقة في الأغلب. عندما لمحتني داخلًا قالت لي:

– ماذا تفبرك هنا، يا عزيزي الصغير؟

اعترفتُ لهم بأنّني هارب من المدرسة، فلزموا صمتًا حَرِجًا. لبثتُ في مكاني على حافَة البكاء، لكنّها قالت فجأةً بلكنتها الدانماركيّة:

– وما المشكلة في ذلك يا عزيزي؟

ثمَّ ضربَت المنضدة براحةِ يدها وصاحَت:

– قدحًا من الويسكي لعزيزي الصغير...

أستذكر الآن لاعبي البليار في الطبقة الأولى من «كافيه دو كلوني». كنت هناك بعد ظهر يوم سبت من يناير؛ اليوم الذي شُيِّع فيه جثمان تشرتشل. عام 1966، جرى ترميم كلّ المقاهي وتجديدها في جادّة «سان-ميشال» وساحتها، قبل أن يُحوَّل بعضها، خلال السنوات الأخيرة، إلى مطاعم «ماكدونالد»، كمقهى الـ«ماهيو» الذي اعتاد مُراهنو سباق الخيل ارتياده على وقع طقطقات الآلة المنهمكة بتسجيل نتائج السباقات.

بقيت هذه الناحية على حالها حتّى نهاية الستّينات. لم تترك حوادث شهر مايو من العام 1968 التي شكّلت هي مسرحها، سوى صور أخبار بالأسود والأبيض والتي تبدو، بعد ربع قرن من الزمن، غابرة مثل المشاهد التي التُقطت خلال تحرير باريس.

كانت جادّة «سان-ميشال»، مساءَ ذلك الأحد، غارقة في ضبابة ديسمبر، فعاودتني ذكرى شارع هو من شوارع الحيّ اللاتينيّ القليلة – لا بل الوحيد، على ما أظنّ – الذي غالبًا ما يظهر في أحلامي. بعد جهد ضئيل، عرفته. شارع ينحدر قليلًا باتّجاه الجادّة. لعلَّ امتزاج الحلم بالواقع يُبقي شارع «كوجاس» في ذهني مُعلّقًا أبدًا في الزمن، سابحًا في ضياء مطلع الستّينات؛ ضياءٌ صافٍ ورقيق يُعيدني إلى فيلمين من تلك الحقبة: «لولا» و«وداعًا يا فيليبّين».

عند أسفل الشارع، في الطابق الأرضيّ من أحد الفنادق، كانت هناك صالة سينما، «إستوديو كوجاس». بعد ظهر يومٍ من أيّام يوليو، دخلتُ عتمة تلك الصالة وجوّها المنعش، إذْ لم يكن لديّ ما أفعله، فكنتُ المُشاهد الوحيد فيها.

على مسافة أمتار في الأعلى، عند «جبل سانت-جنفييڤ»، اعتدت مقابلة صديقة تؤدّي أدوارًا في أفلام «الموجة الجديدة» كما كانت تُسمّى آنذاك.

فكّرت فيها بعد ظهر أمس حين صادفتُ عند بوّابات الـ«لوكسمبورغ» رجلًا يرتدي كنزة من الشتلاند البالي، وقد ذكّرني

شعره البنّيّ وأنفه المعقوف بشخصٍ ما. ولكن... بلى، كنتُ غالبًا ما ألتقيه في المقهى الذي ترتاده هذه الصديقة. يُدعى فرنسوا، ولقبه «الفيلسوف»، ربَّما لأنّه كان أستاذًا في الفلسفة في أحد المعاهد الخاصّة.

لم يتعرَّف إليّ. كان يحمل بيده كتابًا ويبدو كطالب مُسنّ. أعادَتني الصدفة إلى هذا الحيّ بعد ربعِ قرن، وإذا بي ألتقي هذا الرجل الذي لم يتبدَّل قطّ ولبثَ وفيًّا للستّينات. وددتُ لو أتحدَّث إليه غير أنَّ الزمن الذي انقضى على لقاءاتنا السابقة، جعله قصيًّا، بعيد المنال، كشخص تركتُه على شاطئ جزيرة نائية. أمّا أنا فقد أبحرت.

ها أنا أراه اليوم مُجدَّدًا، في الجهة المقابلة من الحديقة، برفقة شابّة شقراء. لبثا هنيهات يتبادلان الأحاديث عند مدخل محطّة المترو التي أُنشئت بدلًا من محطّة قطارات الـ«لوكسمبورغ» القديمة. ثمَّ هبطَت الشابّة السلَّم وتركته وحيدًا.

كان يسير بِخُطًى متسارعة على رصيف جادّة «سان-ميشال» باتّجاه «بور رويال»، والكتاب ما زال في يده. حاولتُ أن أتبعه شاخصًا بكنزته الشتلاند التي سرعان ما توارت كومتها الخضراء عند ناصية شارع «آبيه-دو-ليبيه».

اجتزت الحديقة. أكان ذلك لأنّني التقيتُ ذلك الطيف؟ أم بسبب ممرّات «اللوكسمبورغ» التي لم تطأها قدمي منذ دهر؟ وسط نور ما بعد الظهر، بدا لي أنّ الأعوام تمازجت والزمن بات شفيفًا. ذا يوم رافقتُ تلك الصديقة الممثّلة في سيّارتها المكشوفة، من «جبل سانت-جنفييف» إلى إستوديوهات «سان موريس». سرنا بمحاذاة «السين» عند مخارج باريس، وأشجار الدلب تُظلِّلنا بقناطر من أوراقها. ذلك كان ذا ربيع من العام 1963 أو العام 1964.

الثلج الذي يستحيل وحولًا على الأرصفة، بوّابات حمّامات «كلوني» الأثريّة التي يعرض أمامها الباعةُ الجوّالون بضائعهم، الأشجار العارية، كلُّ هذه التلاوين الرماديّة والسوداء المحفورة في ذهني، تُعيد إليَّ ذكرى فيوليت نوزيير. كانت تضرب مواعيدها في أحد فنادق شارع «فيكتور كوزان»، قرب «السوربون»، أو في الـ«باليه دو كافيه»، في جادّة «سان-ميشال».

كانت فيوليت داكنة الشعر وباهتة البشرة، شبّهتها صحف تلك الحقبة بزهرةٍ سامّة ولقّبتها بـ«فتاة السموم». كانت تلتقي في الـ«باليه دو كافيه» بطلَبة زائفين ذوي سترات مخصَّرة ونظّارات بأطر ضخمة. تقنعهم بأنّها سترث ثروة مهمّة وتعدهم بالنجوم: أسفار حول العالم، سيّارات بوغاتي... لا بدّ من أنّها التقَت، عند الجادّة عينها، الزوجين ت. اللذين كانا انتقلا للتوّ للإقامة في شقّة صغيرة في شارع «فوسيه-سان-جاك».

وعلى مسافة أمتار تحت الـ«باليه دو كافيه»، عند الرصيف المقابل، كانت سيلفيان، ابنة العشرين عامًا، تخوض مباريات ضدّ لاعبي البليار في الطابق الأوّل من الـ«كلوني». لم يكن شعرها داكنًا، ولا

بشرتها باهتة كفيوليت، بل كانت خصلاتها سمراء ضاربة إلى الحمرة، وسحنتها أشبه بما يمكن وصفه بالإيرلنديّة. هكذا فتاة لم تكن لتمكث طويلًا في أجواء الحيّ اللاتينيّ المكفهرّة. قد تجدها ناحية «مونمارتر»، في الـ«فانتازيو»، أو في صالة البليار في جادّة «كابوسين». قد ترتاد كازينو «لو سيركل هوسمان»، في شارع «لا ميشوديير» حيث تلتقي مَن يجعلونها محظيّتهم. الهدايا، المجوهرات، حياة اليُسر والتبطُّل، ومراتع خيل «نويي»... في الفترات الأولى من عهد الاحتلال، تتزوّج بأحد معجبيها والذي يفتقر إلى المال لكنّه يحملُ لقب ماركيز... تقضي أوقاتًا طويلة في فرنسا الحرّة، على الـ«كوت دازور»، ويُصبح رئيس شركة «بان دو مير دو موناكو» في عدادِ مُعجبيها. ثمَّ على الأرجح تعود إلى المنطقة المحتلّة لتلتقي المدعوّ إدي بانيون في ظروف مريبة... لكنّه ربيع العام 1933 وهي لا تزال تُقيم مع أمّها في «شيل»، ناحية الـ«سين-إي-مارن»، وتأتي إلى باريس عبر قطار خطّ «مو» وصولًا إلى محطّة «غار دو ليست». بحسب إحدى الإفادات التي جمعها المحقّقون، إحدى المرأتين اللتين استدرجتا الزوجين ت. إلى الـ«بيرّو»، كانت ذات شعر بنّيّ مائلٍ إلى الحمرة، وبدت كأنّما لم تتجاوز العشرين من عمرها. هي تُقيم في الضاحية الشرقيّة. لكن، هل كانت تُدعى سيلفيان؟

ها هي في ربيع العام 1944، بعد مضيّ أحد عشر عامًا، في غرفة نزل صغير عند رصيف محطّة «أوسترليتز»، تنتظر إدي بانيون ذاك، الذي يعمل منذ شهر مايو في تهريب النبيذ من بوردو إلى باريس.

في الأمسيات التي ينتقل فيها من باريس الى بوردو، كان يركن شاحنته قبالة النزل على رصيف الـ«سين» في ظلّ صفّين من أشجار الدلب، ويصعد إلى غرفتها. عمّا قليل، يُخيّم الظلام وتُطفَأ الأضواء.

وحده هدير الميترو العابر جسر «بيرسي» يعكِّرُ، من وقتٍ لآخر، صفاء الصمت. من خلال نافذة الممشى المفضي إلى الغرفة، ما زالت تلوحُ، في كنفِ الشفق، سكك محطّة «أوسترليتز» ولكنّها فارغة، حتّى إنّنا قد نتساءل ما إذا كانت مهجورة حقًّا.

يتناولان طعام العشاء في الأسفل، في المقهى. الستائر مسدلة على زجاج الباب والنوافذ، تقيُّدًا بحظر التجوال. لا أحد في المقهى سواهما. تقدّم لهما وجبة باهظة مهرّبة ويأتي صاحب النزل الذي كان يتحدَّث عبر الهاتف خلف البار، للانضمام إلى طاولتهما. في الواقع، يقوم بانيون بعمليّات التهريب بين بوردو وباريس لحساب هذا الرجل الذي يملك مستودعًا مجاورًا، عند رصيف «سان-برنار» في سوق النبيذ. بعد العشاء يبلّغه صاحب النزل بتعليماته الأخيرة، ثمّ ترافقه هي إلى الشاحنة عند رصيف «أوسترليتز». يدور المحرّك هادرًا لبعض الوقت، ثمَّ تتوارى الشاحنة في قلب العتمة. إذ ذاك، تعود إلى النزل لتستلقي على سريرها غير المرتَّب، سرير ذي قضبان من النحاس. من حولها، جدران مكسوَّة بورق مزركش عتيق. ثُريّا قديمة تتدلّى من السقف. لقد عرفت في صباها غرف فنادق كثيرة مشابهة، عندما كانت تمضي الليل خارج بيت أمّها الضيّق في الـ«شيل».

ستنتظره حتّى مساء اليوم التالي. سيقود شاحنته إلى المستودع في سوق النبيذ لتفريغ حمولتها ثمَّ يقطع المسافة سيرًا على القدمين من «سان-برنار» إلى النزل. في هذه الغرفة البائسة، تعاودها أجواء صباها ومشاهده حين كانت لا تزال في سنّ العشرين. أمّا أنا فتعاودني إحدى ذكريات الطفولة: لوسيان ب. السمين، المرتمي على مقعد جلديّ في مكتب أبي. لقد سمعتهما ذات يوم يتحدَّثان عن سيلفيان هذه، ذات الشعر البنّيّ المائل إلى الحمرة. أهو

لوسيان السمين الذي عرَّف أبي إليها؟ أم العكس؟ بحسب ما أسرَّ به أبي إليّ ذات يوم، علمتُ بأنّه كان يتردَّد على الحيّ اللاتينيّ، مطلع الثلاثينات، بالتزامُن مع فيوليت نوزيير وسيلفيان، وحين كان في مثلِ سنِّهما أيضًا؛ ربَّما التقى سيلفيان في صالة البيليار في الـ«كافيه دو كلوني».

على بعد أمتار من رصيف «أوسترليتز»، باتّجاه جسر «بيرسي»، هناك «مخازن باريس العامّة»؛ أما زالت موجودة؟ في شتاء العام 1943 اعتُقِلَ أبي في أحد مستودعاتها الذي حُوّل آنذاك إلى فرع تابع لمعسكر «درانسي». ثمّ ذا مساء، جاء أحدهم وأطلق سراحه: أهو إدي بانيون الذي كان من أعضاء ما عُرِفَ في ما بعد بـ«عصابة شارع لوريستون»؟ مصادفات كثيرة تحثّني على مثل هذا الظنّ: سيلفيان، لوسيان السمين... حاولت أن أهتدي إلى المرأب الذي كان بانيون يعمل فيه قبل الحرب ومن بين شتات المعلومات التي جمعتها بشأنه، اكتشفتُ ما يلي: اعتُقِل في نوفمبر من العام 1941 على أيدي الألمانيِّين إذْ خدعهم بصفقة مشمّعات من السوق السوداء. احتُجز في سجن «لا سانتيه»، وأطلق سراحه على يدِ شامبرلان المعروف بـ«هنري». عمل لدى هذا الأخير، في شارع لوريستون، ثمّ انفصل عن عصابة «لوريستون» قبيل ثلاثة أشهر من حملة التحرير. اعتزل في «باربيزون» بصحبة عشيقته الماركيزة أ. كان يملك حصان سباق وسيّارة. ثم وجد وظيفة «سائق شاحنة لنقل النبيذ من بوردو إلى باريس».

عند مخرج «المخازن العامّة»، رحتُ أتساءل عن الطريق التي سلكها أبي في العتمة الشاملة خلال حظر التجوال. لا بدّ من أنّ خروجه حيًّا جعله في ذهول شديد.

من بين جميع نواحي «الضفّة اليسرى»، يبقى الأشدّ ظلمة في نظري، ذلك النطاق الممتدّ من جسر «بيرسي» إلى أسوار «حديقة

النباتات». لا يبلغ القطار محطّة «أوسترليتز» إلّا بعد هبوط الليل، والليل هنا يعبق بروائح النبيذ والفحم. ها أنا أُغادر المحطّة وكلّ تلك الكتل المعتمة، على امتداد السين، التي كانت تُسمّى بـ«محلّات ميناء أوسترليتز». مصابيح السيّارات أو المصابيح الكهربائيّة التي تُحمل باليد، تُنير بضعة أمتار من رصيف «سان-برنار»، إلى الأمام. تمتزج رائحة النبيذ والفحم الآن برائحة ورق أشجار «حديقة النباتات» وأسمع صياح طاووس وزمجرات النمر واليغور. حفيف أشجار الدلب وسكون سوق النبيذ. تكتنفني برودة الأقبية المنعشة. ثمّة برميل يُدَحرَجُ على مقربة لينأى ضجيجه الحزين شيئًا فشيئًا. يبدو أنّ عمارات شاهقة من الإسمنت شُيِّدَت فوق أنقاض سوقِ النبيذ، ولكن، مهما حاولت جاهدًا أن أحملقَ في الظلام، فلا أراها.

كيما نبلغ الجنوب، ينبغي أن نعبر أنفاقًا: «تومب-إيسوار»، «غلاسيير»، وشارع «لا سانتيه»، التي تنيرها بين حين وآخر لمبة زرقاء. بعد حين، نلج جوادّ «مونسوري» ومروجها المشمسة.

كانت بوّابة «إيتالي» تحدّ أصقاع البلاد شرقًا في حين تقود جادّة «كيليرمان» إلى الغرب، وصولًا إلى بويب الـ«بوبلييه». إلى اليمين، تمتدّ محترفات «سنيكما» التي تُشبِهُ سفينة شحن ضخمة غارقة عند حافّة الجادّة، خصوصًا في الليالي التي ينعكس فيها ضياء القمر على الواجهات الزجاجيّة. على بُعد أمتار قليلة إلى اليسار، مدرّج «شارليتي». لقد نَمَت الأعشاب البرّيّة في صدوعِ الإسمنت.

قصدتُ هذه الناحية للمرّة الأولى ذات يوم أحد، بسبب صديق أصرّ على اصطحابي إلى مدرّج «شارليتي». كان قد حظِيَ، برغم سنّه الصغيرة التي لم تتجاوز السابعة عشرة، بوظيفة في إحدى صحف الرياضة. كُلِّف يومها بتغطية وقائع سباق في العدو السريع وطلب إليَّ أن أُساعده في تحرير مقالته.

لم نكن جمهرة كبيرة على المدارج. ما زلت أذكر اسم أحد العدّائين: بيكمال. طرحنا عليه بضعة أسئلة عند نهاية السباق لتنميق

مقالتنا. نحو الساعة الخامسة، انتظرنا الحافلة 21 التي لم تأتِ. قرّرنا أن نقصد وسط باريس سيرًا على القدمين. كانت الشوارع مقفرة تحت الشمس. بإمكاني استعادة تاريخ ذلك اليوم بأدقّ تفاصيله: عند أوّل بائع صحفٍ صادفناه في طريقنا – لم يكن كشكًا لبيع الجرائد بل نوعًا من الدكّة المظلّلة بشادر أخضر تُنصب أيّام الآحاد – رأيتُ الصورة والعنوان بالحروف العريضة يُعلنان وفاة مارلين مونرو.

بعد «شارليتي»، المدينة الجامعيّة، وإلى اليمين، مُتنزَّه «مونسوري». عند أوّل الشارع المحاذي للمُتنزَّه، مبنًى ذو واجهات زجاجيّة عريضة، كان يقطنه الطيّار جان مرموز. طيف مرموز والـ«سنيكما» – مصنع لمحرّكات الطائرات – قد ربطا في ذهني تلك الناحية بمطار «أورلي» القريب، ومدارج هبوط «فيلاكوبلاي»، و«بوك» و«توسو-لو-نوبل».

مطاعم شبه ريفيّة. قبالة المبنى الذي كان مرموز يعود إليه ما بين رحلتين على متن الـ«أيروبوستال»، شاليه «البُحَيرة». شرفته تُطلّ على مُتنزَّه «مونسوري». في الأسفل، عند ناصية جادّة «راي»، منزل صغير أمامه حديقة مفروشة بالحصى. خلال أيّام الصيف، تُقام فيها طاولات ويُقدَّم العشاء تحت تعريشة جميلة.

نِسبةً إليّ، مع تصرُّم الأعوام، انفصلَت هذه الناحية شيئًا فشيئًا عن باريس. من أحد المقهيين عند آخر شارع الـ«أميرال موشيز»، قبالة مدرّج «شارليتي»، كان الجوك بوكس يبثُّ أُغنيات إيطاليّة. صاحبة المقهى امرأة سمراء رومانيّة الملامح. ضياء الصيف يكتنفُ جادّتَي«كيليرمان» و«جوردان» المقفرتين عند الظهر. ما زلتُ أراها في أحلامي، تلك الظلال المُرخاة على الأرصفة، وواجهات المباني المغراء، ولكنّها باتت تنتمي إلى ضاحية روما.

سرتُ على امتداد مُتنزَّه «مونسوري»، تحميني أوراق الشجر من الشمس. هناك، محطّة مترو المدينة الجامعيّة. عمّا قليل، أدخل برودة المحطّة الصغيرة المنعشة. قطارات مُتعدِّدة تتوقّف بشكل دوريّ لتقودنا إلى شواطئ «أوستي».

كانت جاكلين قد استأجرَت غرفةً في أحدِ تلك المجمّعات السكنيّة في جادّة «كيليرمان» التي شُيّدَت قبل الحرب عند مواقع التحصينات. كنّا نستخدم بطاقات طالبيّة مزوَّرة لتناول وجبات الطعام – خمسة فرنكات مقابل الوجبة الواحدة – في مقصف المدينة الجامعيّة: ردهة واسعة مكسوّة الجدران في أحد المباني الذي يذكّر بفنادق «سان موريتز» أو «سيميز».

أحيانًا كنّا نمضي أيّامًا ولياليَ بأكملها على عشب المرجاتِ المحيطة أو في ردهاتِ الأجنحة المختلفة. كذلك كان الحرم الجامعيّ يشمل صالة للسينما وقاعة للمسرح.

أشبه بمنتجع اصطياف أو أحد تلك الأماكن الخاضعة لامتياز أجنبيّ، كما هي الحال في بعض نواحي شانغاي، كانت هذه المنطقة المحايدة، عند تخوم باريس، توفِّر لساكنيها الحصانة الدبلوماسيّة. حالما ندخل حرمها – ببطاقاتنا المزوَّرة – نشعر بأنّنا بَلَغنا برّ الأمان.

تعرَّفتُ إلى باشيكو في المدينة الجامعيّة. كنت قد لمحته هناك منذ بضعة أشهر. في يناير من ذلك العام، كانت المدينة

مكسوَّة بالثلوج وكأنَّها منتجع للرياضات الشتائيّة. صودف أنّني التقيتُ مرارًا، في نواحي جادّة «جوردان»، رجلًا خمسينيًّا يرتدي معطفًا بنّيًّا حائلًا ذا كمّين مفرطَي الطول وبنطالًا من المخمل الأسود وينتعل جزمتَي ثلج. شعره داكن مسرَّح إلى الخلف، وخدّاه غير حليقين. كان يَسيرُ بالكثير من التوجُّس مع كلِّ خطوة يخطوها، وكأنَّه يخشى أن تنزلق قدمه.

خلال شهر يونيو التالي، لم يعد الشخص نفسه؛ بدلة من الكتّان البيج، قميص من الأزرق الفاتح وحذاء جديد من جلد الأيل، جدّدت مظهره بالكامل. أمّا شعره المقصوص قصيرًا ووجنتاه الحليقتان فقد جعلته يبدو فتيًّا، أصغر من سنِّه بكثير. هل استهلّينا الحديث في كافتيريا المدينة الجامعيّة ذات النوافذ المطلّة على جادّة «جوردان»، أو عند الجهة المقابلة، في مطعم-مشرب «بابل»؟ الأرجح أنّنا كنّا في الكافتيريا بسبب أجواء المطارات السائدة والتي من شبه المستحيلات أن نفصلها عن باشيكو: ديكور من البلاستيك والمعدن، أناس في ذهاب وإياب يتكلّمون بكلّ اللغات وكأنّهم في محطّة ترانزيت. أضف أنّ باشيكو كان يحمل حقيبة سوداء في ذلك النهار، وأخبرني بأنّه يعمل لدى الخطوط الجوّيّة الفرنسيّة ولكنّني لم أفهم بالضبط إن كان يعمل مضيفًا على متن الطائرة أم يمارس وظيفة ما في مطار «أورلي». كان يقيمُ في إحدى غرف جناح «المقاطعات الفرنسيّة». إذ أبديتُ دهشتي حيال إقامة شخص في مثل سنّه في المدينة الجامعيّة، أبرز بطاقة طالب تُفيد بأنّه تسجّل في كلّية العلوم التابعة لسوق النبيذ.

لم أجرؤ على القول إنّني رأيته من قبل. وهو، تراه لَمَحَني في ذلك الشتاء؟ هل توقّع أن أطرح عليه بعض الأسئلة؟ أو أنّه كان واثقًا من أنّني لن أربط البتّة بين المتشرّد ذي الجزمة الثلجيّة والرجل

الماثل أمام عينَيّ؟ عيناه الزرقاوان الغامضتان حجبتا ما يدور في رأسه من أفكار.

طيف بمعطف بنّيّ حائل متعثّر الخطوات توارى خلف ثلوج ذلك الشتاء. وأحد لم يدرِ بذلك. إلّا أنا.

صرنا نلتقيه في كافتيريا المدينة الجامعيّة أو في المطعم الصغير في جادّة «راي» والذي يقدِّم المآكل «الشرقيّة» كافّة. كنّا نخوض أحاديث متفرّقة: يشرح لي أنّه لا يستطيع متابعة كلّ الدروس في كليّة العلوم بسبب عمله. ولكن ما كان عمله بالضبط؟

– لنقل... إنّه عمل مضيف. أحيانًا على متن الطائرات، وأحيانًا في مكتب مطار «أورلي»... أو في مخازن الطيران في ناحية الـ«إنفاليد»... ثلاثة أيّام في الأسبوع...

فجأةً سكت. لم ألحّ عليه. كانت له صداقات في أوساط الطلبة المغاربة الذين يشغلون أوّل جناح عند مدخل المدينة الجامعيّة، مباشرة بعد مدرّج «شارليتي». كانت الشلّة تضمّ، إلى جانب المغاربة، شقراوات سكنديناڤيّات وشابّين كوبيّين. بصحبة هذه المجموعة، كنّا نشاهد الأفلام التي تُعرض مساء كلّ سبت، وغالبًا ما نجتمع في غرفة إحدى السكنديناڤيّات في مؤسّسة «دوتش-دو-لا-مورت» وهي أشبه ببلدة مؤلّفة من أجنحة صغيرة ذات جدران قرميديّة مكسوّة بمعرّشات اللبلاب. كان باشيكو يدعونا جميعًا إلى العشاء تحت عرائش مطعم جادّة «راي» ويُوزّع علينا، عند تقديم

التحلية، الهدايا المختلفة – سجائر أجنبيّة، عطور، ولّاعات «معفاة من الضريبة»، يستحصل عليها من مطار «أورلي».

من وقت إلى آخر، كان ينضمّ إلينا شابّ أسمر، طويل القامة يعمل لدى الخطوط الجوّيّة المغربيّة، أقام سابقًا لبضع سنوات في المدينة الجامعيّة. كان باشيكو يُخاطبه برفع الكلفة، ومن الواضح أنّ ذاك الشابّ هو مَنْ عرَّفه بالآخرين. كان باشيكو يشاطر المجموعة المرحَ والدعابة وحمّامات الشمس على عشب مرجات الحرم الجامعيّ، ويُشارك في الأحاديث، وإنّما لطالما أحسست بأنّه يبقى على مسافة حذرة، فعلّلت ذلك بفارق السنّ بيننا وبينه.

ذات أُمْسِيَّة من أيّام الآحاد، كان بمفرده في الكافتيريا، فدعانا جاكلين وأنا للجلوس إلى طاولته ومشاركته في تناول الـ«بان بانيا» وفطيرة بالتفّاح. كدتُ أسأله عن المتشرّد ذي المعطف الحائل اللون الذي صادفته ذلك الشتاء، لكنّني أحجمتُ في اللحظة الأخيرة. اكتفيتُ بسؤاله عمّا إن كان باشيكو اسمًا إسبانيًّا أو برتغاليًّا.

– أبي من البيرو.

حدجنا، الواحد تلو الآخر، بنظرات فاحصة وكأنّه يريد التأكُّد من أنّه لا يُجازف في إفصاحه عن تفاصيل شخصيّة.

– أمّي نصف بلجيكيّة ونصف فرنسيّة. نَسَبُها هو الذي جعلني متحدّرًا من سلالة المارشال فيكتور.

أعترف بأنّني لم أكن قد سمعتُ، حتّى تلك اللحظة، بذلك المارشال. جُلّ ما أعرفه أنّ هناك جادّةً تُسمّى بجادّة «فيكتور»، ناحية بوّابة «فرساي».

– كان المارشال فيكتور أحد مارشالات الإمبراطوريّة الأولى، وقد منحه نابوليون لقب دوق «دو بيلّون».

قال ذلك بشيء من اللامبالاة ولم يستغرب ألّا يعني اسم «فيكتور» لنا شيئًا.

– في صباي كنتُ أسمّي نفسي فيليب دو بيلّون، غير أنّني لا أمتلك حقّ حمل هذا اللقب.

هكذا، علمنا بأنّ اسمه فيليب. لقد اعتدنا أنْ نُناديه بـ«باشيكو» وكان «باشيكو» نِسبةً إلينا بمنزلة الاسم والشهرة.

– ولمَ لا تمتلك الحقّ؟

– آخر دوق لم يُرزق سوى ببنات، إحداهنّ جدّتي. هكذا مات اللقب. هل يُثير الموضوع اهتمامكما فعلًا؟

– أجل.

كانت المرّة الأولى التي يحدّثني فيها عن أموره الشخصيّة. حتّى تلك اللحظة، لم أكن أعرف شيئًا: رجلٌ زئبقيّ وغامض مثل نظراته. حتّى عمره لم يكن واضحًا: بين الخمسةِ والثلاثين والخمسين عامًا.

–فيليب دو بيلّون، جميل. كان عليك الاحتفاظ بهذا الاسم.

– حقًّا؟

هزَّ كتفيه وراح يرمقني لهنيهات بعينيه الزرقاوين. عاودَتني صورة المتشرّد ذي المعطف البنّيّ الحائلِ، ذلك الشتاء، عند جادّة «جوردان»: ربّما كان يُعرف حينذاك بـ«فيليب دو بيلّون».

– متى قرَّرت التخلّي عن اسم فيليب دو بيلّون؟

– أيهمّك أن تعرف حقًّا؟

أتى بعضٌ من رفاقنا المغاربة والسكندينافيّين ليجلسوا إلى طاولتنا، فاستعاد باشيكو تحفُّظه. شارك في الأحاديث لكنّه لم يتطرّق إلّا إلى العموميّات. غادرنا الكافتيريا في ساعة متأخّرة، وكان باشيكو يحمل حقيبة الجلد الأسود التي رأيتها مرارًا.

افترقنا عند ردهة جناح «المقاطعات الفرنسيّة» حيث يشغل باشيكو إحدى الغرف. كان الليل دافئًا فجلسنا جاكلين وأنا على مقعد طويل محاط بدغل يحجبنا عن الأنظار. لهذا السبب، لم يلحظ باشيكو وجودنا عندما غادر المبنى بعد عشر دقائق حاملًا حقيبة الجلد السوداء عينها. حبسنا أنفاسنا، وراودَتنا الفكرة عينها: هو يزعم بأنّه يُقيم في جناح «المقاطعات الفرنسيّة»، وإنّما حالما يتأكّد من أنّه لن يصادف أيًّا من أفراد مجموعتنا، يغادر الجناح إلى جهةٍ مجهولة.

انتظرنا ريثما ابتعد حوالى الخمسين مترًا وتبعناه. عند مخرج المدينة الجامعيّة انعطف يسارًا وسلك اتّجاه بوّابة «أورليان»، ثمَّ توارى طيفه في كنفِ الليل. إلى أين يذهب؟ أين يُقيمُ حقًّا؟ كنتُ أتخيّله سائرًا مباشرة باتّجاه بوّابة «فرساي»، ليصل أخيرًا إلى تلك الجادّة الموحشة التي تحمل اسم أحد أسلافه. كان يجتازها بخطًى متمهّلة، حقيبته في يده، كالمسرنم، وفي تلك الساعة المتأخّرة، كان العابر الوحيد.

صادفناه مجدّدًا في اليوم التالي، بمظهره المتأنّق المعتاد، ببدلته البيج وحذاء جلد الأيل. لم تكن الحقيبة السوداء بيده، بل حقيبة سفر صغيرة من الكتّان الكحلي موسومة بشعار الخطوط الجوّيّة البريطانيّة. التقَت عيوننا، وإذا بنظراته خاوية كالمعتاد. شعرتُ بأنّه من واجبي، أنا وحدي، أن أحلّ اللغز الذي يُحيط بشخصيّة هذا الرجل. باشيكو. فيليب دو بيلّون. انطلاقًا من هذين الاسمين ينبغي أن أتوصّل إلى معرفة تفاصيل أخرى عنه. في تلك الفترة كنتُ أعتاش من الإتجار بالكتب المستعملة والملفّات المتفرّقة والمجموعات الكاملة من المجلّات. حاولتُ كيفما اتّفق أن أعثر على اسمَي دو بيلّون وباشيكو في دليل الهاتف والصحف القديمة التي أعثر عليها، مثل لمّام خرق ينبشُ، بخطّافه، أكوامًا من الفضلات.

هكذا، تمكّنتُ من جمع بعض المعلومات: كان الدوق دو بيلّون الأخير، متحدّرًا، لجهة الأمّ، من أصل إنكليزيّ برتغاليّ، عبر أُسرتَي «ليموس» و«ويلوبي دا سيلفيرا». تُوفّي عام 1907 ولم يحظ بذرّيّة من الذكور. تزوّجَت ابنته الصغرى بالمدعوّ «فرنان-ماري-ديزيريه ويري دو هولتس»، وهو بلجيكيّ، يحمل لقب «الكونت

الرومانيّ». رُزقا من زواجهما هذا بابنَين وابنة تُدعى إيليان. بحسب دليل أخبار المجتمع «بوتان»، أقام الجميع في فندق خاص، 4، شارع «غروز»، في الدائرة السادسة عشرة. بالفعل، ذُكر في خانة العنوان عينه المدعوّ «ريكلوس إي بيريز دي باشيكو» وحرمه المولودة باسم «إيليان دو هولتس». من المؤكّد أنّ هذين الأخيرين هما والدا باشيكو الذي أعرفه. منذ العام 1927، وبحسب الفهارس عينها، اختفَت هذه العائلة من 4 شارع «غروز» ولم تخلِّف أثرًا. في العام 1953 يظهر مجدّدًا اسم الكونتيسّة دو هولتس-بيلّون في 4، شارع الـ«دوم»، وفي السنة التالية، تحت العنوان عينه ورقم الهاتف عينه: باشيكو (السيّدة دو). ثمَّ، لا شيء.

خلال اللحظات القليلة التي كنت أختلي فيها بباشيكو في الكافتيريا، كنت أطرح سؤالًا لبقًا بين الحين والآخر، لعلّه يُجيبني بما يزوّدني بالمزيد من المعلومات عنه.

– هل كنتَ تذهب لزيارة أمّك في شارع الـ«دوم» خلال العام 1953؟

حالما طرحتُ السؤال بدا مرتبكًا وامتقع لونه فجأةً. كانت فرصة مُؤاتية للإفادة من عنصر المفاجأة.

– لم أفهم تمامًا ماذا تقصد.

بدا في موقع مَن يُدافع عن نفسه. لِمَ أَربَكَه ذكر هذا التفصيل؟ حسبتُ أنّني أعرف الإجابة: العام 1953 أو 1954... لم يعد الأمر يتعلّق بجدّه المارشال فيكتور، لا بل دنَونا كثيرًا من الحاضر ومن متشرّد ذي معطف حائل وجزمة ثلجيّة بالية، سلك خلال الشتاء المنصرم جادّة «جوردان». كم كنتُ مُتلهّفًا لاختبار ردّ فعله عندما أحدِّثه عن ذاك الرجل. أتُراهُ سيجفل كمَن يخافُ ظلَّه؟

مضَت أسابيع متعدِّدة لم يظهر له أثر خلالها. أهو عَمَل طارئ أبعده عن المدينة الجامعيّة؟ رحتُ أستقصي في جناح «المقاطعات الفرنسيّة» عمّا إذا كان ثمّة شخص باسم باشيكو يشغل إحدى غرف المبنى. غير أنّ أحدًا هناك لم يسمع بطالب يحمل هذا الاسم، أو رجل في مثلِ سنّه، قصير الشعر يرتدي بدلة من الكتّان البيج وينتعل حذاءً من جلدِ الأيل. مساءً كنت أستجوب أعضاء مجموعتنا في الكافتيريا:

– هل من أخبار عن باشيكو؟

– لا.

أصدقاؤنا المغاربة والسكندينافيّون ما عادوا يأتون على ذكره. كأنّه تلاشى من ذاكرتهم. واستمرّت الحياة بدون باشيكو: فترات ما بعد الظهر والأُمسيّات على عشبِ المرجة، النزهات في مُتنزَّه «مونسوري»، ومآدب العشاء تحت عرائش المطعم الشرقيّ في جادّة «راي»... بالنهاية كدت أقتنع بأنّنا لن نراه بعد الآن. شاءت المصادفة أن يقع نظري على مقالتين صغيرتين ما بين كومة صحف عائدة إلى العام 1946 والعام 1948. كانت المقالة الأولى تشمل لائحة بأشخاص يجري البحث والتحرّي عنهم لتورّطهم في أنشطة خلال فترة الاحتلال. من بين هؤلاء ذكر اسم «فيليب دو بيلّون» الملقَّب بـ«دي باشيكو» والذي تُوفّي، بحسب المعلومات المتوافرة، العام المنصرم جرّاء معاناته خلال اعتقاله في معسكر داشو. غير أنّ وفاته هذه تلفّها شكوك صريحة. بعد ذلك بعامين، أي عام 1948، نشرَت صحيفة ثانية في أسفل إحدى صفحاتها، لائحة أخرى بأسماء متّهمين لم يمثلوا أمام المحكمة ويجري البحث عنهم: كان ثالث اسم في اللائحة «فيليب دو بيلّون»، مولود في باريس في 22 يناير 1918، ومجهول مكان الإقامة. هذا يعني بأنّ وفاته لم تكن قد أُكّدت في تلك الفترة.

مصير رَجُل مطارَد لاتّصاله بالعدوّ ولا يُعرفُ إن غادر معسكر داشو حيًّا أم لا، جعلني في حيرة تامّة. أيّ تسلسل للحوادث أفضى به إلى مثلِ هذا الموقف المتناقض؟ تذكَّرتُ أبي الذي عايش كلّ تناقضات مرحلة الاحتلال ولم يخبرني بأيّ شيء عنها قبل أن نفترق إلى الأبد. بدوره، ها هوذا باشيكو، وبالكاد تبيّنت لمحة منه، يتوارى دون أن أحظى منه بأيّ تفسيرات.

ظهر مجدّدًا، مساءَ يوم أحد، في كافتيريا المدينة الجامعيّة. كان الوقت متأخّرًا والطلّاب هجروا طاولات الفورميكا، بينما مكثتُ أنا عند النافذة المطلّة على جادّة «جوردان». لمّا رأيته قادمًا ببدلته البيج وحذاء جلد الأيل – شعره أطول ممّا اعتدناه وبشرته مُسفوعة – أحسستُ باختلاج عميق في القلب. جاء وجلسَ بقربي وكأنّ شيئًا لم يكن؛ كأنّه تغيَّب بضع دقائق فقط لإجراء مخابرة هاتفيّة وعاد.

– حسبتُ أنّنا لن نراك مجدّدًا، قلتُ.

– لقد أوفدتني الخطوط الجويّة الفرنسيّة للعمل في أحد مطارات المغرب... في الدار البيضاء... وقد طالَت إقامتي هناك.

– بلَغَني أنّك اعتُقِلت في معسكرَ داشو خلال الحرب، قلتُ له على نحوٍ مباغت.

– لا.

لبث ساكنًا ونظره شاخص إلى الأمام وكأنّه يخشى سماع المزيد.

– وبلغَني أنّك كنتَ مطلوبًا من العدالة بُعَيد الحرب، ذلك لاتّصالك بالعدوّ. كنتَ آنذاك تُسمّي نفسك فيليب دو بيلّون.

– أنتَ مخطئ.

– ظنّوا لبعض الوقت أنّك قضيتَ في داشو...

– قضيت؟

مكتبة

هزّ كتفيه.

– لأيّ أسباب طاردوك بعد الحرب؟

راح يُقطّع الـ«بان بانيا» بالشوكة والسكّين إلى قطع رقيقة.

– أنت تتمتّع بمخيّلة واسعة... لكنّني جدّ متعب هذا المساء...

طالعني بابتسامة فأدركتُ أنّني لن أنال منه حقًّا ولا باطلًا. خلال الأيّام التالية التقينا مرارًا ضمن المجموعة ولم يجرِ بيننا أيّ حديث على انفراد.

دعانا إلى العشاء كالعادة في مطعم جادّة «راي». كان صديقه الذي يعمل في الخطوط الجوّيّة المغربيّة حاضرًا تلك الليلة. كما جرت العادة أيضًا، قدّم لنا الهدايا من سجائر أميركيّة وعطور وأقلام حبر «معفاة من الضريبة» وتذكارات أخرى أحضرها معه من الدار البيضاء. لم أشأ إحراجه بسؤالي عمّا إذا كان يُقيم حقًّا في جناح «المقاطعات الفرنسيّة». لقد اتّفقَ أيضًا أنّنا رافقناه مرارًا، آخر الليل، حتّى ذلك الجناح، ورأيته يتسلّق السلّم العريض، غير أنّني لم أكن راغبًا في الجلوس على المقعد المحاط بسور من الأجمات للتأكّد من أنّه غادَر المبنى بعد عشر دقائق.

بعد ظهر يوم من أيّام سبتمبر، حيث كنّا مستلقين على عشبِ مرجة المدينة الجامعيّة نتحيَّن دفء الأيّامِ المشمسة الأخيرة، راح باشيكو يُرينا صورًا للمطار وجادّات الدار البيضاء. شاهدناه في إحدى الصور مرتديًا زيّ المضيف أمام مَبنًى يتنافر بياضُه الناصع وزرقة السماء. كانت كلّ التفاصيل واضحة في هذا الديكور المشمس: الألوان، بيضاء وزرقاء، الظلّ المنبسِط عند أسفل المبنى، زيّ المضيف

البيج الرمليّ، ابتسامة باشيكو، وجسم الطائرة السياحيّة البرّاق في الخلفيّة. غير أنّني كنتُ أفكّر في شخص يُدعى فيليب دو بيلّون توارى طيفه في الضباب منذ زمن بعيد. كان مصيره شديد الغموض فحسبوا أنّه مات بعد الحرب. لم يكن يُعرف باسمه الحقيقيّ حتّى. تُراها أيّ حياة كانت تلك التي عاشها هذا الرجل المولود في 22 يناير 1918 في باريس؟ ممّا لا شكّ فيه أنّه أمضى سنوات طفولته الأولى في منزل جدّيه ووالديه الذي يقع عند 4، شارع «غروز». بدافع الفضول، قلّبتُ صفحات الدليل: لقد أصبح 4، شارع «غروز» مقرًّا للكنيسة الكلدانيّة؛ والأرجح أنّ الطابق الأرضيّ منه قد جُعِلَ مصلّى للاحتفاء بطقوس هذه الطائفة الشرقيّة. هل تُركت غرفة الطفل على ما كانت عليه؟ عقدت العزم على المشاركة في أحد قداديس الطائفة الكلدانيّة، فالتسلُّل، خلاله، إلى طوابق الفندق الخاصّ الأخرى، وربّما العثور على شهود عرفوا باشيكو أيّام شارع «غروز». في المبنى المجاور، رقم 2، أقامَت نحو العام 1920، الأميرة دوليب-سينغ، وقد أيقظ فيّ الاسم إحدى ذكريات الطفولة: كنت أنتظر أبي ذا مساء جمعة، في إحدى محطّات الساحل النورمانديّ. من بين المسافرين الذين يترجّلون من قطار باريس، امرأة سمراء محاطة بعددٍ من الخدم معتمرين العمائم، وبفتيات إنكليزيّات يرتدين سراويل الخيّالة ويشغلن على الأرجح وظيفة الوصيفات. كانوا يحمّلون عددًا هائلًا من الحقائب على عربات. ارتطم بي أحدهم فوقعتُ أرضًا وجرحتُ ركبتي. لم تلبث المرأة أن أنهضَتني عن الأرض وانحنَت عليّ وراحَت تمسح خدش ركبتي بحنان أموميّ، مُستعينةً بمنديل وقارورة عطر صغيرة. كانت امرأة ثلاثينيّة ذات وجهٍ مشرقٍ بالحسنِ والرقّة. ابتسَمَت لي ومسَّدَت شعري براحتها. كان عدد من السيّارات الأميركيّة في انتظارها أمام المحطّة.

– أميرة هندوسيّة، قال لي أبي.

في أيّ مدرسة داخليّة أُودِعَ الطفل فيليب ريكلوس إي بيريز دي باشيكو؟ مَن كان أصدقاؤه عام 1938 حين كان في العشرين من عمره؟ وأيّ مهنة كان يُعدُّ لمزاولتها؟ أتخيّله مرذولًا متروكًا لوحده. قد أضافت الحرب والاحتلال من البلبلة والتشوُّش في قرارةِ ذلك الشاب ذي الشخصيّة الحائرة أساسًا: لا بدّ من أنّه لم يكن واثقًا حتّى من هُويّته، الأمر الذي حداه، في تلك الآونة، على انتحال اسم فيليب دو بيلّون وكأنّه أراد أن يتشبّث بالمعلم الثابت الوحيد في حياته، سنده البعيد الغائر في القِدم: سلفه، المارشال فيكتور، الدوق دو بيلّون.

لا شكّ في أنّه كان ضحيّة معشر السوء. قد ذُكِرَ في مقالة العام 1946 أنّ مذكّرة جَلب سُطِّرَت في حقّه وفي حقّ آخرين من بينهم كونتيسّة من آل سيكندورف وبارون من آل كيرمانور. فهل كانت ألقاب النبالة تلك حقيقيّة أصيلة كلقب فيليب دو بيلّون؟ لقد تضمّنَت لائحة الصحيفة، الصادرة عام 1948، أسماء الثلاثة هؤلاء مجدّدًا:

الإجراءات المتّخذة ضدَّ المذكورين أدناه بتهمة الاتّصال بالعدوّ:

1) لوبوب أندريه، مواليد 6 أكتوبر 1917 في باريس، الدائرة الرابعة عشرة. كورتييه. 22، شارع واشنطن.

2) شيرّير ألفريد، الملقّب بـ«الأميرال»، مواليد 26 مارس 1915 في هانوي (الهند الصينيّة)؛ مجهول محلّ الإقامة.

3) فيليب دو بيلّون، مواليد باريس 22 يناير 1918، والداه ريكلوس إي بيريز دي باشيكو ماريو وَويري دوهولتس إيليان؛ مجهول محلّ الإقامة.

4) بريمون روجيه، مواليد 24 فبراير 1910 في باريس، معروف بـ«برونيو روجيه»؛ مجهول محلّ الإقامة.

5) ييفريموفيتش ميودراف، الملقّب بـ«دراغا»، مواليد 23 مارس 1966 في فالديجو (يوغوسلافيا)، أقام سابقًا في باريس، 2، ساحة آليكامب (الدائرة السادسة عشرة)، مجهول محلّ الإقامة حاليًا.

6) رويز خوسيه، الملقّب بـ«فنسان»، والمعروف بـ«فريارتيه فنسان»، مواليد 26 أبريل 1917 في سيستاو (إسبانيا)، مجهول محلّ الإقامة.

7) غالران هيلويز، زوجة بيلاييز، مواليد 24 أبريل 1914 في لوينكو (إسبانيا)، مجهولة محلّ الإقامة حاليًا.

8) دو رايث هيلديغارد-جان-كارولين، زوجة فون سيكندورف، مواليد 18 فبراير 1907 في مايان (ألمانيا)، أقامَت سابقًا في باريس، 41، جادّة فوش؛ مجهولة محلّ الإقامة حاليًا.

9) ليجيه إيف، آخر محلّ إقامة معروف: 14، شارع «داردانيل».

10) واتشمان يوهانس، آخر محلّ إقامة معروف: 76، جادّة الـ«شانزيليزيه».

11) فيركرو، آخر محلّ إقامة معروف: 1، شارع «لورد-بايرون».

12) كريمر إدمون، الملقّب بـ«بيكيه»، والمعروف بـ«بارون دو كيرمانور»، مواليد 31 أكتوبر 1905 في بروكسيل، آخر محلّ إقامة معروف: 10، شارع «بيرتو دوما» (نويي).
تخلّف المتّهمون عن جلسة الاستماع في 3 نوفمبر 1947.

لم يمثل أحدٌ منهم أمام جلسة الاستماع التي عقدَت في 25 فبراير 1948، كما أمر رئيس محكمة العدل في ناحية الـ«سين». لقد تواروا إلى الأبد.

هل اعتُقل فيليب دو بيلّون حقًّا في معسكر داشو؟ وإثر عودته إلى باريس، أين اختبأ من العدالة التي كانت تقاضيه؟ أتخيّله مُتسلّلًا في الليالي إلى الشقّة الصغيرة في شارع «دوم» حيث تستقبله تلك الكونتيسّة دو هولتس بيلّون المعروفة بالسيّدة دي باشيكو – والدته – خلسةً، لأنّها على الأرجح بلّغت الشرطة التي تبحث عن ابنها بأنّه تُوفّي بالفعل.

في أحيان كثيرة، عن حذر واحتراز، لم تلتقِ الأم وابنها في الشقّة بل في مقاهي الناحية – في ساحة «فيكتور هوغو» أو جادّة «غراند آرميه»... ذا مساء، قصدا معًا ناحية الـ«مون-دو-بييتيه» في شارع «بيار شارون» ليتقاسما رهن آخر الحليّ الثمينة التي كانت تملكها، ثمّ سلكا الدرب صعودًا باتّجاه الـ«شانزيلزيه». كان ذلك مساءَ يوم من أيّام شتاء العام 1948، وكان إشعار الجلب الثاني قد نُشر في اليوم عينه، الأمر الّذي يؤكّد أنّ القضاء ما زال يشكّك في وفاة فيليب دو بيلّون... افترَقَت عنه عند محطّة مترو «جورج الخامس» حيث توارى بين حشود ساعة الذروة.

عشرون عامًا انقضَت، وها باشيكو اليوم يستعرض أمامنا، على عشب المرجة الفسيحة، صوره في المغرب كسائحٍ عائدٍ من

إجازة. ربّما يدعونا في ما بعد إلى مشاهدة عرض بالشرائح المصوّرة في غرفته في جناح «المقاطعات الفرنسيّة». في النهاية، قد أكون أنا الذي يُفبرك بشأنه افتراضات خاطئة. في ذلك المساء، اجتمعنا جميعًا حول طاولة في الكافتيريا وأذكر أنّ أحد المغاربة وصديقته السويديّة رقصا على أنغام موسيقى يبثّها جهاز ترانزستور. باشيكو رقص أيضًا. كان يرتدي كنزة كحليّة خفيفة، ونظّارة شمسيّة؛ شعره القصير أضفى عليه مظهرًا فتيًّا، الأمر الّذي جعلني أشكّ في سرّي بأنّ هذا الرجل هو فعلًا من مواليد 22 يناير 1918.

خلال الأسبوع التالي، كنّا جاكلين وأنا لوحدنا برفقة باشيكو في أحد المقاهي قبالة مدرّج «شارليتي». بجانبه، حقيبة الجلد السوداء.

– هلّا أسديتما لي خدمة؟ سألنا.

كان يعلم بأنّ جاكلين تُقيم في غرفة ناحية جادّة «كيليرمان». فهلّا احتفظَت بهذه الحقيبة لبضعة أيّام؟ عليه أن يتغيّب مجدّدًا بسبب عمله، ولا يستطيع أن يترك الحقيبة في غرفته في جناح «المقاطعات الفرنسيّة»، ذلك لأنّ بابها لا يُقفل بالمِفتاح: لقد وضع في هذه الحقيبة بعض الملابس وأغراضًا شخصيّة لا تهمّ أحدًا سواه.

رافقنا حتّى مبنى جادّة «كيليرمان»، لكنّه أبى أن يصعد. في الفناء، سلّمني الحقيبة.

– يوفدونني مجدّدًا إلى المغرب... ولكنّني سأعود في الأسبوع المقبل... سأرسل لكما بطاقة بريديّة...

مكث واقفًا وسط الفناء. أحسستُ بأنّه يودّ أن يُسرّ إليّ بأمرٍ ما، لكنّه متردّد. كنتُ أحمل الحقيبة بيدي وكان ينظر بعينين شاردتين.

– أتسديان لي خدمةً أخرى؟

مدَّ يده نحوي بظرفٍ أسمر.

– إنّه ملفّ تسجيلي في كلّيّة العلوم لهذا العام. يجب أن يودع في «سوق النبيذ» قبل نهاية الأسبوع.

– اطمئنّ، سنفعل، قلت له.

صافحنا ونظرَ إليّ مجدّدًا. ثمّ استدار بغتةً ملوّحًا بيدهِ مودّعًا. رأيته يجتاز الجادّة ويسير بمحاذاة سور «سنيكما» باتّجاه مُتنزَّه «مونسوري».

مرّت أيّام وشهور ولم يبلغنا شيء عنه. لم يرسل لنا بطاقة بريديّة من المغرب كما وعدنا. كنّا قد وضعنا الحقيبة في خزانة الغرفة في جادّة «كيليرمان». أمّا ملفّ التسجيل في كلّيّة العلوم فقد كان مجرّد طلب لمتابعة الدروس بصفة مستمع حرّ. حُرِّر الطَلَب باسم المستدعي فيليب دي باشيكو. لم يُفاجأ رفاقنا في المدينة الجامعيّة لغيابه – سيعود ذا يوم ويجلب معه خراطيش السجائر الأميركيّة... لكنّهم اعتادوا تدريجيًّا ذِكرَه بشيء من اللامبالاة وكأنّه واحد من مئات نزلاء الحرم الذين نصادفهم مرّةً في الممرّات ونجلس عَرَضًا برفقتهم إلى إحدى طاولات الكافتيريا.

ذا مساء، قـرَّرتُ أن أفتح الحقيبة. فقد التقيتُ عند شرفة مقهى «بابل»، بمحاذاة مُتنزَّه «مونسوري»، الشابّ الأسمر الطويل الذي يعمل لدى الخطوط الجوّيّة المغربيّة. سألته عن أخبار باشيكو.

– أظنّ بأنّه لن يعود. سيمكث في الدار البيضاء.

– أتعرف عنوانه؟

– لا.

كنتُ واثقًا من أنّه يعرف. يعرف أكثر بكثير ممّا يرغب في قوله.

– إذًا، يفضّل أن يمكث هناك؟

– أجل.

حالما عدت إلى الغرفة أخرجتُ حقيبة الجلد السوداء من خزانة الحائط. كانت مقفلة بالمِفتاح، غير أنّني فتحتها مُستعينًا بسكّين.

لم أجد فيها ما يستحقّ الذكر: المعطف الحائل الذي كان يرتديه المتشرّد الذي رأيته في جوار المدينة الجامعيّة ذلك الشتاء قبل عامين، وبنطال من المخمل الأسود. عثرت في أحد جيوب المعطف على حافظة نقود من جلد الماروكان البالي، فأفرغت محتوياتها على طاولة المطبخ.

بطاقة هُويّة، يعود تاريخ إصدارها إلى عشر سنوات خلت، باسم فيليب دي باشيكو، مواليد 22 يناير 1918. العنوان المذكور فيها كان التالي: 183، شارع «بيلّيار»، باريس، الدائرة الثامنة عشرة. إضافة إلى مسوّدة رسالة، مطويّة أربع مرّات – أو هذا ما تصوّرت نظرًا إلى العبارات المشطوبة والكلمات المضافة بين السطور:

باريس، في 15 فبراير من العام 1954.

حضرة المدير،

أنا الآن في الملجأ الخاصّ بجيش الخلاص، على متن زورق عند رصيف «أوسترليتز» قبالة محطّة القطارات. هناك قاعة طعام ومغاسل ومهجع حسن التدفئة. لقد أمضيت عدّة أسابيع، في الخريف الماضي، في «مدينة اللجوء» في شارع «كانتاغريل» حيث عملت في أحد المشاغل. لا أملكُ مؤهّلات معيّنة سوى أنّني عملتُ منذ بلوغي الخامسة عشرة في قطاع المطاعم (مقاهٍ، مطاعم، إلخ...).

في ما يلي لائحة بالوظائف التي تولّيتها منذ البداية:

نادل: بين 1933 و1939: مطعم «لا فلوت»، 118، رصيف «أرتوا»، البيرّو. من 1940 (بعد تسريحي من الخدمة العسكريّة) إلى يونيو 1942: مقهى «لي تاماريس»، 122، شارع «أليزيا» (الدائرة الرابعة عشرة). من يونيو 1942 إلى نوفمبر 1943: «لو بولو»، 72، جادّة «غراند آرميه». من نوفمبر 1943 إلى أغسطس 1944: مطعم «شي ألكسي»، 47، شارع «نوتردام دو-لوريت» (الدائرة التاسعة). من 1949 إلى 1951: حارس ليليّ في نزل «كيبلر»، 9، شارع «كيبلر» (الدائرة السادسة عشرة).

لا أزالُ إلى اليوم ممنوعًا من الإقامة في مقاطعة الـ«سين»
وفقدت كلَّ أوراقي الثبوتيّة.
راجيًا أن تتمكّن من مساعدتي.
مع كلّ احترامي وتقديري.
لومبار.

ما عدا تلك الرسالة، كانت المحفظة تحتوي على صفحة من مجلّة، مطويّة هي الأخرى أربع مرّات: إنّها المقالة التي تسرد وقائع تلك الليلة من شهر أبريل 1933 التي تسكّع خلالها الزوجان ت. من «مونبارناس» إلى الـ«بيرّو» قبل أن يعودا إلى شارع «فوسيه-سان-جاك» بصحبة المرأتين والرجلين المجهولين. أُرفقت المقالة ببضع صور باهتة اللون يظهر في إحداها المطعم-المرقص في الـ«بيرّو»، وفي أخرى مدخل المبنى الذي يقع عند 26، شارع «فوسيه-سان-جاك». في أعلى المقال، إلى اليسار، صورة شابّ ذي شعر بنّيّ مملّس عرفت فيه على الفور، برغم الفاصل الزمنيّ الكبير، المدعوّ «باشيكو». قوس الحاجبين، الأنف المستقيم، والفم الممتلئ قليلًا، هي الملامح عينها. إلى جانب هذه الصورة تعليق: «شارل لومبار، أحد المستخدمين لدى المطعم-المرقص في الـ«بيرّو»، وقد تولّى خدمة الزوجين تلك الليلة».

هكذا اتّضح لي أنّ هذا الرجل الذي عرفته لأشهر طويلة لا يُدعى فيليب دي باشيكو. بل هو المدعوّ شارل لومبار الذي كان يعمل سابقًا كنادل مقهى، ويتردّد على ملاجئ جيش الخلاص وخصوصًا الزورق الراسي عند رصيف «أوسترليتز». لِمَ ترك لي حقيبته؟ هل أراد أن يُلقّنني درسًا ليُبيّن لي أنّ الواقع أشدّ غموضًا ممّا أحسَب؟ أو هو، ببساطة، تخلّى عن هذه البقايا البالية ليقينه بأنّه سيبدأ بحلّة جديدة في الدار البيضاء أو أيّ مكان آخر؟

أين انتحل لومبار هويّة باشيكو ومتى؟ تاريخ إصدار بطاقة الهُويّة يعود إلى عام 1955. إذًا، في تلك السنة، كان باشيكو حيًّا يُرزق. أمّا الصورة المثبّتة على هذه البطاقة فهي، بالفعل، صورة الرجل الذي التقيته في المدينة الجامعيّة، واسمه الحقيقي شارل لومبار. لقد استبدل صورة باشيكو ببراعة لأنّها موسومة بختم قسم الشرطة. في تلك الليلة، قصدتُ الـ183 من شارع «بيلّيار»، قرب بوّابة «كلينيانكور»، فأفادتني زوجة البوّاب بأنّ أيًّا من سكّان العمارة لا يحمل اسم باشيكو.

لا شكّ في أنّ السلطات قد كفّت عن ملاحقة باشيكو، فقد بلغَني صدور قانون عفو عامّ في تلك الفترة، بشأن جُناح «الاتّصال بالعدو». يبدو أنّ باشيكو عاود الظهور فجأةً حينذاك للاستحصال على بطاقة هُويّة.

أظنّه كان من المتشرّدين. في الواقع، في مهجع زورق رصيف «أوسترليتز»، حظي بالنزيل لومبار جارًا له. سرق منه هذا الأخير بطاقة هويّته. لقد كان كلّ شيء متاحًا في نواحي «أوسترليتز» بين رصيف المحطّة و«حديقة النباتات»: في أجواء الظلمة الحالكة بين روائح النبيذ والفحم وزئير الحيوانات المفترسة، قد يسقط أيّ متشرّد من مقدّم زورق إلى نهر الـ«سين» ويغرق من دون أن يتنبّه أحد لغيابه.

هل كان لومبار يعرف ماضي باشيكو عندما سرق بطاقة هُويّته؟ في أيّ حال، كان يعلمُ بأنّ فيليب دي باشيكو اختار أن يُدعى فيليب دو بيلّون وبأنّه نسيب المارشال فيكتور. ما زالت أصداء عباراته الهامسة تتردَّد في أذنيّ حين أسرَّ إليّ في كافتيريا المدينة الجامعيّة: «في صباي كنتُ أسمّي نفسي فيليب دو بيلّون، غير أنّني لا أمتلك حقّ حمل هذا اللقب».

في مهجع زورق «أوسترليتز» اطمأنّ باشيكو إلى لومبار وحكى له سيرة حياته. لِمَ ذُكِرَ في بطاقة الهُويّة أنّه مُقيم في الـ183، شارع

«بيلّيار» في الدائرة الثامنة عشرة؟ أكانت أمّه لا تزال على قيد الحياة؟ وأين؟ كثيرة هي الأسئلة التي قد نعثر على إجاباتها في مَلَفٍّ محفوظ بين ملفّات أخرى في مركز الشرطة. ملفّ يحتوي على أسباب اعتقاله في «داشو» ودقائق تهمة «الاتّصال بالعدوّ» ولكن، كيف يمكن الحصول على هذا الملفّ؟

ماذا لو أنّ باشيكو واصل تردّده على مختلف ملاجئ جيش الخلاص، غير مكترث بفقدان بطاقة هُويّته؟ منذ وقت طويل وهو ميت في اعتقاد الجميع... بل ربّما هو لم يغادر مهجع رصيف «أوسترليتز».

في فتراتِ ما بعد الظهر، ربّما كان يتسكّع في نواحي الرصيف، أو يقصد «حديقة النباتات» ثمَّ يختتم نهاره جالسًا في ردهة المحطّة قبل أن يعود أدراجه لتناول العشاء في قاعة الطعام على متن الزورق ويرتمي متهالكًا على فراشه في المهجع. ثمَّ ينسدلُ الليل على الناحية التي لطالما تسكّع والدي فيها، لسنوات خلَت، كمتشرِّد هو أيضًا، مع فارق واحد ألا وهو أنّ «مخازن باريس العامّة» التي اعتُقل فيها مع مئاتِ الأشخاص لم تكن حينذاك ملاذًا تابعًا لجيش الخلاص.

في ذاكرته الضبابيّة تلوح نُتَفٌ من الماضي: الفندق الخاصّ في شارع «غروز». الكلب الذي أهداه له جدّاه لمناسبة عيد الميلاد. موعد مع فتاة ذات شعر كستنائيّ فاتح. قد ذهبا معًا إلى السينما ناحية الـ«شانزيليزيه». حينذاك، كان يُدعى فيليب دو بيلّون. كان ذلك زمن الاحتلال الذي اصطحب معه أناسًا يحملون، هم أيضًا، أسماء غريبة وألقاب نبالة مزيّفة. شيرّير الملقّب بـ«الأميرال»، ودراغا، والسيّدة دو سيكندورف، والبارون دو كيرمانور...

جلستُ على شرفةِ أحد المقاهي قبالة مدرّج «شارليتي»، ورحت أقلِّبُ عددًا من الفرضيّات بشأن فيليب دي باشيكو الذي

لم أرَ وجهه حتّى. كنتُ أدوّن بعض الملاحظات، ومن دون أن أُدرك تمامًا ماذا أفعل، شرعتُ في تأليفِ كتابي الأوّل. لم يكن دافعي رسالة حياة اختَرْتها لنفسي ولا موهبة خاصّة حُبيتُ بها، بل كان ببساطة ذلك اللغز المتمثّل بحياة رجل من المؤكّد أنّني لن أعثر عليه، وكلّ تلك الأسئلة المحيطة به والتي لن أعثر على أجوبة لها. خلفي، يبثّ الجوك بوكس أغنية إيطاليّة، ورائحة إطارات مشتعلة تسودُ الأجواء. في فيء أشجار جادّة «جـوردان»، شابّة جميلة تشقّ دربها. غرّتها الشقراء، وجنتاها وثوبها الأخضر كانت النسمات المنعشة الوحيدة، ظهيرة ذلك اليوم من أيّام أغسطس. ما الجدوى من السعي خلف ألغاز مُستعصية واقتفاء أثر الأشباح، حين تكون الحياة هنا أمامنا، ببساطتها، تحت الشمس الساطعة؟

في سنّ العشرين، غالبًا ما كنت أشعر بالارتياح حين أنتقل من الضفّة اليسرى إلى الضفّة اليمنى من نهر الـ«سين»، عبر«جسر الفنون». يكون الليل قد هبط، فألتفتُ إلى الوراء مرّةً أخيرة لألمحَ، فوق قبّةِ المعهد، بريق نجمِ الشمال.

حينذاك، لم تكن نواحي الضفّة اليسرى سوى مقاطعة باريس. ما إن أعبر إلى الضفّة اليمنى حتّى أشعر بالنسيم وقد استحال عليلًا.

أتساءل في سرّي اليوم ما الذي كنتُ أحاول التهرّب منه، بعبوري «جسر الفنون». ربّما تلك الحارة التي عرفتها بصحبةِ أخي والتي، بدونه، باتت غريبة عنّي: مدرسة شارع «بون-دو-لودي»، بلديّة الدائرة السادسة حيث تُوزَّع الجوائز؛ الحافلة رقم 63 التي كنّا ننتظر وصولها أمام مقهى «دو فلور» لتقلّنا إلى الـ«بوا دي بولوني»...

لزمن طويل، ظلّ التوتُّر يتملّكني كلّما مشيت عبر شوارع الضفّة اليسرى. أمّا الآن فيبدو الحيّ عاديًّا. لم يعد يعني لي. وكأنّما قد أعيد بناؤه حجرًا حجرًا بعد جولة من القصف، ففقد روحه. مع ذلك، بعد ظهر من أيّام فصل الصيف، استعدت بومضة عين، عند منعطف شارع «كاردينال»، شيئًا من محلّة «سان-جرمان-دي-

بريه» كما عرفتها في طفولتي، والتي تحاكي المدينة القديمة في «سان-تروبيه»، إنّما من دون السيّاح. من ساحة الكنيسة كان شارع «بونابارت» ينحدر بانسياب صوب البحر.

بعد اجتيازي «جسر الفنون»، عبرت تحت قنطرة «اللوفر»، وهذا بدوره، نطاق مألوف لديّ منذ زمن. تحت تلك القنطرة، تنبعث من الجهة اليسرى التي لم نجرؤ يومًا على المغامرة بولوجها، روائح أقبية وتبوّل وخشب متعفّنٍ. نور النهار يتسلّل من نافذة ملطّخة مكسوّة بخيوط العنكبوت، تاركًا كومةً من الردم والعوارض الخشبيّة وأدوات البستنة تسبح في عتمة خفيفة. آنذاك، كنّا واثقين بأنّ ثمّة جِرذان تختبئ هنا، فنحثّ الخطى لنبلغ الهواء الطلق أخيرًا، عند ساحة «اللوفر».

عند جهات الساحة الأربع، ينبت العشب البرّيّ بين تصدُّعات الحجارة المرصوفة. هنا أيضًا، يتراكم الردم: حصى، أحجار بناء وقضبان حديد صدئة.

عند أسفل أجنحة القصر التي تحيط بالساحتين الصغيرتين، مقاعد حجريّة تحفّ تخوم «الكاروسيل». مقاعد خالية. إلّا منّا. وأحد المشرّدين أحيانًا.

وسط الساحة الأولى، على قاعدة عالية لدرجة يصعب معها تمييز التمثال الذي يعلوها، الجنرال لافاييت يهيم في الفضاء. تحيط بذلك التمثال مرجة خضراء غير مشذّبة. كان بإمكاننا اللهو والتمدُّد بين الأعشاب العالية الغضّة من دون أن يتعرّض لنا أيّ حارس.

في الساحة الثانية، بين الأجمة، تمثالان من البرونز، جنبًا الى جنب: قايين وهابيل. سياج الفناء يعود لحقبة الإمبراطوريّة الثانية. حينما كان السيّاح يحتشدون عند مدخل متحف «اللوفر»، كنّا الأطفال الوحيدين الّذين يتردَّدون إلى هاتين الساحتين المهجورتين.

المنطقة الأكثر غموضًا كانت تلك الممتدّة إلى يسار حدائق «الكاروسيل»، على طول الجناح الجنوبيّ الذي ينتهي عند الـ«بافيليون دي فلور». عبارة عن ممرّ واسع يفصله عن الحدائق سياج، وتحفّه من الجانبين أعمدة الإنارة. كما في ساحة اللوفر، كانت الأعشاب الضارّة تنبت بين تصدُّعات الحجارة المرصوفة. بيد أنّ معظمها اختفى، تاركًا مساحات ترابيّة جرداء. في الأعلى، عند تجويفة جناح القصر، ساعة حائط كبيرة. خلف الساعة، زنزانة سجين «زندا». لا يغامر أيٌّ من مُتنزّهي حدائق الـ«كاروسيل» بولوج ذلك الممرّ. كنّا نلهو لساعات طويلة ما بعد الظهر، بين أحواض الرخام والتماثيل المهشّمة، الأحجار وأوراق الشجر اليابسة. عقارب الساعة لا تتحرّك. تشير دومًا إلى الخامسة والنصف، تغلّفنا بصمت عميق ومريح. يكفي أن نبقى في ذلك الممرّ، ليتوقّف الزمن.

في ساحة «اللوفر»، عند يمين القنطرة المؤدّية إلى شارع «ريفولي»، مخفر للشرطة. سيّارة لنقل المساجين مركونة بمحاذاته، وعند بابه نصف المشقوق الذي يتسلّل منه ضوء أصفر، يقف عناصر بأزيائهم الرسميّة. تحت القنطرة، إلى اليمين، مدخل المخفر الرئيس. نِسبةً إليّ، تلك كانت نقطة الحدود التي تعني فعليًّا العبور من الضفّة اليسرى إلى الضفّة اليمنى، فأتفقّد بطاقة هُويّتي للتأكُّد من أنّني أحملها في جيبي.

قناطر شارع «ريفولي»، على امتداد صفٍّ متاجر «اللوفر». ثمّ ساحة «بالي روايال» فمدخل محطّة المترو خاصّتها. كانت تفضي إلى رواق تصطفّ على جانبَيه محالّ ماسحي الأحذية بكراسيّهم الجلديّة، كما وواجهات الحليّ المزيّفة والتذكارات. من هناك، كان يكفي أن يختار العابرُ وجهة رحلته: «مونمارتر» أو أحياء باريس الغربيّة.

مع بلوغ «لامارك-كولانكور»، كان ينبغي استخدام المصعد لمغادرة المحطّة. المصعد بحجم حجرة «التلفريك»، وفي الشتاء، عندما يكسو الثلج باريس، يُخيّل إليك أنّه يصعد بك إلى ميدان للتزلّج.

في الخارج، تتسلّق سلّمًا كيما تلجُ شارع «كولانكور». عند بسطة الدَّرج الأوّل تنفتحُ على جانب المبنى الأيسر، بوّابة «سان-كريستوبال».

هناك، خلال أوقات ما بعد الظهيرة طوال شهر يوليو، عندما يُفرغ القيظُ تلّة «مونمارتر» من مارّتها، يسود صمت وغبشُ الكهوف البحريّة. النوافذ ذات الزجاج الملوّن تعكسُ أشعّة الشمس على الجدران البيضاء والزخارف الخشبيّة القاتمة. «سان-كريستوبال»... أهو اسم جزيرة من جزر البحر الكاريبيّ، لجهة باربيدوس وجامايكا؟ «مونمارتر» أيضًا جزيرة لم أزُرها منذ نحو خمسة عشر عامًا. لقد خلّفتها بعيدًا ورائي، كما هي، في زُرقةِ الزمان... لم يتغيّر شيء: رائحة الطلاء الرطب في المنزل، وشارع «أوريان» الذي سيذكّرني دائمًا بمنحدرات شوارع سيدي بو سعيد.

كنتُ بصحبة تلك الدانماركيّة، مساء يوم هروبي من المدرسة، حين زرتُ الـ«سان-كريستوبال» للمرّةِ الأولى. جلسنا إلى طاولةٍ في مؤخِّر الصالة، لصقَ الواجهات.

– ماذا تريد أن تأكل يا عزيزي الصغير؟

خلال العشاء، حاولتُ أن أحدّثها عن مستقبلي. الآن وقد أقصتني إدارة المدرسة، هل سأتمكّن من متابعة الدراسة؟ أو عليّ أن أجد عملًا ما؟

– لكلّ يوم تدبيره... هيّا تناول الحلوى...

لم يبدُ أنّها تدرك خطورة الموقف. دخل رجل أشقر فارع الطول يرتدي بدلة «برينس دوغال» إلى صالة «سان-كريستوبال» وتقدّم باتّجاه طاولتنا.

– نهارك سعيد يا طوني.

– نهارك سعيد.

بدَت مسرورة لرؤيته. وقد أشرق وجهها. جلس الرجل بجانبنا.

– أعرِّفكَ إلى صديق وجدته مستوحدًا هذه الليلة... قالت مشيرةً بيدها إليّ. لذا، دعوته إلى العشاء.

– أحسنتِ صنعًا.

وبادرني بابتسامة.

– هل يعمل هذا السيِّد في حقل الموسيقى؟

– لا، لا... قالت. لقد هرب من مدرسته.

قطّب ما بين حاجبيه.

– إنّه لَأمر مؤسف... أليس لديه أهل؟

– إنّهما على سفر، تمتمتُ.

– سيتّصل طوني بالمدرسة، قالت الدانماركيّة. سيزعم أنّه والدك ويبلّغهم بأنّك عدتَ إلى البيت...

– أتظنّينها فكرة سديدة؟ سأل طوني.

كان يُدير عقب سيجارته بهدوء على حافَة المنفضة.

– ستقوم بذلك يا طوني...

خاطبته بلهجة آمرة ورفعت سبّابتها متوعِّدة.

– حسنًا...

نهضَت شخصيًّا لتحصل على رقم المدرسة من الاستعلامات، ودوّنَته على قصاصة من ورق.

– والآن دورك يا طوني...

– بما أنّك تصرّين...

نهض وتوجّه بخطى لامبالية نحو كشك الهاتف.

– سترى... سيسوّي طوني الأمر...

بعد هنيهات، عاد إلى طاولتنا.

– حسنًا... يقولون إنّ ابني قد طُردَ من المدرسة وعليّ الذهاب لإحضار أغراضه قبل نهاية الأسبوع...

هزّ كتفيه استياءً. لا بدّ من أنّ وجهي امتقع فجأةً إذْ وضع يده على كتفي مُطَمْئِنًا.

– لا تَقلق... لن يزعجوك بعد الآن... لقد أبلغتهم بأنّك عدت إلى البيت...

بعد ذلك وجدنا أنفسنا، نحن الثلاثة، في شارع «كولانكور».

– لن أتمكّن من اصطحابك إلى السينما، قالت الدانماركيّة. يجب أن أبقى مع طوني لبعض الوقت...

كانت تنوي أن تصحبني بعد العشاء إلى الـ«غومون بالاس» لنشاهد «سليمان وملكة سبأ». فتَّشت في جيوبها وأعطتني ورقةً نقديّةً من فئة العشرة فرنكات.

– ستذهب بمفردك إلى «غومون» كما يفعل الراشدون، وبعد ذلك تستقلّ المترو وتعود لتنام في بيتي... تسلك وجهة بوّابة «دوفين»، وصولًا الى محطّة «إتوال» ومن هناك تسلك وجهة «ناسيون» وتنزل في محطّة «تروكاديرو».

ابتسمَت لي وشدَّ هو على يدي مصافحًا. ركبا معًا سيّارته الزرقاء التي ما لبثت أن توارت عند أوّل منعطف.

لم أذهب إلى السينما ذلك المساء، بل تسكّعت في المحلّة. إذ سلكتُ جادّة «جونو» صعودًا، وجدتُني أمام قصر «بروبيار». كنتُ واثقًا من أنّني سأقيم في هذه الناحية في أحد الأيّام.

أذكر رحلةً بالسيّارة، بعد ذلك بخمسة أعوام، من «بيغال» إلى الـ«شانزيليزيه». كنتُ قد جئتُ لاصطحاب كلود برنار من مكتبته في جادّة «كليشي». أراد أن نذهب إلى السينما لمشاهدة «لولا» أو «وداعًا يا فيليبّين» واللذين قد تركا لي ذكرى جميلة... يبدو لي أنّ غيومَ أعوامي العشرين وشمسَها وظلالها ما زالت حيّة، بمعجزةٍ ما، في مشاهد هذين الفيلمين. لم نكن نتحدّث، في العادة، إلّا عن الكتب والأفلام، لكنّني في تلك الليلة، أتيتُ على ذكر أبي ومغامراته خلال مرحلة الاحتلال: مستودع الـ«كي دو لا غار»، بانيون، عصابة شارع «لوريستون»... التفتَ إليّ وقال:

– أحد قدامى حجّاب شارع «لوريستون» يعمل الآن بوّابًا في ملهًى ليليّ.

ولكن، كيف له أن يعرف ذلك؟ لم تُسعفني سرعة البديهة لطرح السؤال عليه.

– أتودّ أن تلتقيه؟

سلكنا جادّة «كليشي» وتوقّفنا في ساحة «بيغال»، عند حافَة البركة. كانت الساعة تُقارب التاسعة ليلًا.

– ها هو...

أشار إلى رجل يرتدي بدلة كحليّة أمام ملهى الـ«ناتوريست».

نحو منتصف الليل، كنّا نسلك شارع «آرسين-هوساي» صُعودًا باتّجاه أعلى الـ«شانزيليزيه»، حيث ركن كلود برنار سيّارته. فالتقيناه مجدّدًا. كان لا يزال مرتديًا بدلته الكحليّة ونظّارة شمسيّة؛ يقف بلا حراك على الرصيف بين ملهيين متجاورين بحيث لا يُعرف بالضبط لحساب أيٍّ منهما يعمل.

أردتُ استجوابه بشأن بانيون، غير أنّني أحسَستُ بتوعُّكٍ ما حين عبرنا من أمامه. في ما بعد، فتّشت عن اسمه بين أسماء أفراد العصابة الآخرين. قد عمل شابّان منهما كحاجبين في شارع «لوريستون»: المدعوّ جاك لابوسيير والمدعو جان-داميان لاسكو. حينذاك، كان لابوسيير مُقيمًا في شارع «رونس» في «فيل-دافراي»، أمّا لاسكو ففي نواحي «فيلومبل». حُكم على كليهما بالسجن المؤبّد. أيّ واحد منهما هو؟ لم أتعرَّف إليه في صورتَي هذا وذاك غير الواضحتين واللتين نُشرتا في الصحف آنذاك، خلال المحاكمة.

التقيته مُجدّدًا، نحو العام 1970، على رصيف شارع «آرسين-هوساي»، جامدًا في وقفته، في الموقع عينه، ببدلته الكحليّة عينها ونظّارته عينها. حاجب إلى الأبد. تساءلتُ إن كان يضع نظّارة شمسيّة لشدّةِ ما أرهقَ عينيه، طوال ثلاثين سنة، بمراقبة أعداد لا تُحصى من الناس وهي تجتاز عتبة هذه الأمكنة السيّئة السمعة...

بعد ذلك ببضعة أيّام، نقّب كلود برنار مطوّلًا في خزانة عند مؤخَّر المكتبة ليعثر لي على رسالة من زمن الاحتلال. ما زالت بحوزتي مُذاك. هل كانت الرسالة موجّهة إليه؟

يا حبّي الغالي، يا حبيبي الأعزّ. إنّها الواحدة بعد الظهر؛ لقد استيقظتُ جدّ متعبة. لم تجرِ الأمور على أحسن ما يُرام. لقد التقيتُ ضابطًا ألمانيًّا في الـ«كافيه دو لا بيه»، واصطحبته إلى «شانتيي». فَتَح زجاجتين: 140 فرنكًا. عند منتصف الليل، أثقله التعب. كنت قد زعمتُ بأنّ بيتي بعيد: هكذا استأجر لي غرفة. وله أخرى. نلتُ حصّتي من الحسم على الغرفتين أي 260 فرنكًا، وأعطاني هو 300 فرنك. حصّلتُ بذلك الـ25 لويسيّة. ضرب لي موعدًا لمساءِ اليوم التالي في بهو الـ«غراند أوتيل»، لكنّه جاء في الموعد المحدّد، عند السابعة، متأسّفًا مستاءً، وأطلعني على أمرٍ خطّيٍّ تلقّاه بالانتقال إلى «بريست». بعد أن أُلغي موعدي قلت في سرّي: لِمَ لا أذهب إلى «مونبارناس» لأتحقّق إن كان «آنج لو ماكينيون» قد وصل إلى «كافيه دو لا مارين». ذهبت. لا أثر لـ«آنج». فيما كنت أهمّ بركوبِ المترو، اقترب منّي ضابطان ألمانيّان وطلبا إليَّ أن أرافقهما، غير أنّني اكتشفت أنّهما مجرّد أحمقين. لم أقبل. عدتُ إلى الـ«كافيه دو لا بيه» ولم أوفّق. بعدما أغلق هذا الأخير أبوابه، قصدت بهوَ الـ«غراند أوتيل». لا شيء. قصدتُ حانة «كلاريدج»: اجتماع بروتوكوليّ لمجموعة من الضبّاط مع جنرالهم. لا شيء. عاودت الصعود باتّجاه «بيغال» سيرًا على القدمين. في الطريق، لا شيء. كانت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، تقريبًا. صعدت إلى «بيغال»، مُرورًا بـ«رويّال» و«مونيكو»، لا شيء أيضًا. لا شيء في «بيغال» كذلك الأمر. في طريق العودة، صادفت صعلوكين اصطحباني معهما. احتسينا زجاجتين في «بيغال»، قُل 140 فرنكًا، ثمّ قصدنا «باربارينا» حيث نلتُ أيضًا 140 فرنكًا. هذا الصباح، عند السادسة والنصف، عدتُ مُنهكةً لأنام وفي جيبي 280 فرنكًا.

كنتُ قد التقيتُ نيكول في «باربارينا». ليتك رأيت ما كانت ترتدي... الفظاعة بعينها... لو كنتَ هناك، يا عزيزي جانو، لأحسستَ بالغثيان...

جاكلين

مَن يكون «آنج لو ماكينيون» الذي ذهبَت جاكلين تلك للقائه في «كافيه دو لا مارين»؟ في المقهى عينه، زعم أحد الشهود بأنّه شاهد جيزيل وأوربـان ت، في تلك الأمسية من شهر أبريل والتي شهدَت اللقاءات المشؤومة في «مونبارناس».

الـ«الشانزيليزيه»... إنّها كالبحيرة في خيال روائيّة إنكليزيّة، تتراكم في قعرها، طبقة تلو الأخرى، أصداء أصوات العابرين الذين حلموا على ضفافها. تحتفظ المياه المتموِّجة بهذه الأصداء إلى الأبد، وفي صمت الليالي، يُمازجُ بعضها بعضًا... ذا مساء من العام 1942، على مقربة من سينما «بياريتز»، وقع أبي في قبضة رجال المفوَّضين شويبلين وبيرميللو. لاحقًا، في أواخر طفولتي، كنتُ أرافقه إلى مواعيده في بهو «كلاريدج» ثمَّ نذهب معًا لتناول العشاء في المطعم الصينيّ المجاور الذي كان يشغل الطابق الأوّل. هل كان يلتفت إلى رصيف الجادّة المقابل حيث انتظرته، منذ بضعة أعوام، عربة نقل المساجين لتقلّه إلى «المستودع»؟ أذكر مكتبه في المبنى الأمغر ذي الواجهات الزجاجيّة العريضة والذي يقع عند 1، شارع «لورد بايرون». كان من الممكن الخروج، عبر ممرّاته الطويلة، إلى جادّة الـ«شانزيليزيه». أحسبُ أنّه اختار هذا المكان بالذات لأنّه مجهَّز بمَخرجَين. كان يُمضي أوقاته بمفرده في المكتب، وليس بصحبته سوى امرأة جميلة شقراء تُدعى سيمون كورديبه. حالما يُرَنُّ جرس الهاتف، كانت ترفع السمّاعة:

– ألو... مِن قِبَل مَن؟

ثمّ تلتفت نحو أبي وتهمسُ الاسم قبل أن تردفُ قائلة:

– هل أقول له إنّك هنا يا ألبير؟

– لا. أيًّا كان السائل: أنا لست هنا...

على هذا النحو تنقضي أوقات ما بعد الظهر. خاوية. سيمون كورديبه منهمكة في طباعة الرسائل على الآلة الكاتبة؛ أمّا نحن، أبي وأنا، فغالبًا ما كنّا نذهب إلى السينما في الـ«شانزيليزيه». كان يصحبني لمشاهدة العروض المعادة لأفلام أحبّها، بما فيها واحد ظهرت فيه الممثّلة الألمانيّة ديتا بارلو. عندما غادرنا السينما وانحدرنا مشيًا باتّجاه الجادّة، أسرّ لي بنبرة حميميّة لم أعهدها لديه:

– كانت سيمون من صديقات ديتا بارلو... وقد تعرَّفتُ إليهما في الفترة عينها...

ثمَّ سكت، وطال صمتنا حتّى بلغنا ساحة الـ«كونكورد» حيث استفسر عن دراستي.

بعد ذلك بعشرة أعوام، كنتُ أبحث عمّن يطبع روايتي الأولى على الآلة الكاتبة. عثرت على عنوان سيمون كورديبه. اتّصلتُ بها هاتفيًّا فَذُهِلَت إذ ما زلتُ أذكرها بعد زمن طويل، لكنّها وافقت على استقبالي في بيتها في شارع «بيلّوي».

دخلتُ إلى شقّتها متأبّطًا مخطوطة روايتي. بادرَت إلى السؤال عن أبي فلم أجد جوابًا، لأنّني لم أعد أعرف عنه شيئًا.

– إذًا أنت تؤلّف روايات؟

أجبتُ بالإيجاب بنبرة غير واثقة. أدخلتني إلى حجرة بدا لي أنّها ردهة استقبال أُخليت من أثاثها. كان طلاء الجدران البيج يتقشّر في بعض المواضع.

– لنقف عند البار، قالت.

أشارت بحركة مُباغتة إلى بار صغير في مؤخَّر الحجرة. بدت لي، بحركة يدها، مُستخفّة في تلك اللحظة، ولكنّني أدرك اليوم كم كانت تُخفي من الحرج والارتباك. وقفَت خلف منضدة البار فوضعتُ مخطوطي عليها.

– أأسكب لك كأسًا من الويسكي؟ سألتني.

لم أجرؤ على الرفض. كنّا واقفين وجهًا لوجه من جهتَي البار وما من إضاءة سوى تلك الخافتة المنبعثة من مصباح جداريّ صغير. صبَّت كأسًا لها أيضًا.

– أتشربها مثلي؟ بدون إضافات؟

– أجل.

في الواقع، لم أحتسِ الويسكي منذ قدَّمته لي الدانماركيّة لدى «مالفوس» قبل ذلك بأعوام طويلة...

ارتشفَت من كأسها جرعة كبيرة.

– وتريدني أن أطبع لَك كلّ هذا؟ أشارَت بيدها إلى المخطوطة. الحقيقة أنّني توقَّفت عن الطباعة منذ وقت طويل.

وكأنّها لم تتقدّم في السنّ. عيناها الخضراوان كما عهدتهما. لم يمسّ الزمن أيًّا من تقاسيم وجهها الجميلة: الجبين، قوس الحاجبين، الأنف المستقيم. لكنّ بشرتها شابتها العدّة الورديّة بعض الشيء.

– ينبغي أن أسترِدّ مهاراتي... وقد يقتضي ذلك بعض التمارين...

رحتُ أسأل نفسي أين لها أن تعمل على الآلة الكاتبة في هذه الحجرة الخالية. وقوفًا، والآلة الكاتبة على البار؟

– إن كان الأمر ليسبّب لك أيّ إزعاج فلا داعي لل...

– لا، أبدًا، على الإطلاق...

صبَّت كأسًا أخرى من الويسكي.

– سأحاول أن أستردّ مهارتي... أستأجر آلة... أخذت تقرع براحة يدها، على سطح البار. اترك لي ثلاث صفحات ثمّ عُدْ بعد خمسة عشر يومًا... لتسلّمني ثلاث صفحات أخرى... وهكذا دواليك... أيناسبك؟

– أجل.

– أترغب في كأس أخرى؟

إثر مغادرتي شقّة سيمون كورديبه لم أستقلّ المترو مباشرةً من محطّة «بواسيير». كان الوقتُ ليلًا فتسكّعتُ في الناحية.

تركتُ لها ثلاث صفحات من مخطوطتي برغم أنّني لم أكن واثقًا من أنّها ستطبعها على الآلة الكاتبة. هزَّت كتفيها حين قلت لها إنّني لا أعرف أيّ جديد عن أبي منذ نحو خمس سنوات. من الواضح أنّ لا شيء، ولا شيء بتاتًا بشأن ألبير، قادر على مفاجأتها، حتى ولو كان ذلك اختفاءه.

كانت قد أمطرت. الهواء مشبع برائحة البنزين وورق الأشجار الرطب. فجأةً فكَّرتُ في باشيكو. تخيّلته عابرًا على الرصيف. كنتُ قد بلغت مدخل فندق «بالتيمور». أعلمُ بأنّه ذهب، ذا مساء، إلى موعد في هذا الفندق وتساءلتُ في سرّي عن هُويّة الشخص الذي قد يلتقيه هناك. ربّما كان «آنج لو ماكينيون».

المعلومة الوحيدة التي حصلتُ عليها بشأن باشيكو جاءت عرضًا في سياقِ محادثة، عند كلود برنار، في بيته في جزيرة الذئاب. كنّا قد تناولنا طعام العشاء بصحبة تاجر عتقيّات من بروكسيل قدّمه على أنّه شريكه. أيّ سياق بل أيّ متاهات جعلتنا، هذا الرجل وأنا، نأتي على ذكر الدوق دو بيلّون، ثمّ فيليب دو بيلّون الشهير بـ«دي باشيكو»؟ ذكّره الاسم بأمرٍ ما، فقد التقى في صباه عند أحد شواطئ

بلجيكا، في «هايست» قرب «زيبروغه»، شخصًا يُدعى فيليبّي دي باشيكو. كان هذا الأخير يُقيمُ عند جدَّيه في فيلّا خربة بجوار السدّ، ويزعمُ أنّه من البيرو.

كان فيليبّي دي باشيكو يتردّد إلى فندق «المنارة» حيث تُحيي صاحبة الفندق المذكور، وهي مُغنّية سابقة في أوبّرا لياج، أُمْسِيّات غنائيّة لزبائنها بين الحين والآخر. كان مولعًا بابنتها، وهي فتاة شقراء رائعة الجمال تُدعى ليديا. يُمضي لياليه في احتساء الجعّة بصحبة أصدقاء له من بروكسيل، وينام حتّى الظهر. كان قد هجر الدراسة واعتاد أن يعيش بالتحايل؛ لم يكن لجدّيه المسنّين أيّ قدرة على مراقبة سلوكه.

بعد ذلك بسنوات، التقى كلود برنار هذا الفتى مجدّدًا في باريس، خلال أحد الدروس في فنّ التمثيل حيث يعرفه الجميع باسم فيليب دو بيلّون. كان يتابع الدروس بصحبة فتاة ذات شعر كستنائيّ فاتح. أمّا هو فكان شابًّا أسمر تميّزه وحمة فوق عينه. ذا يوم قال فيليب دو بيلّون هذا إنّه حظيَ بعمل حسن الراتب بفضل إعلان في جريدة.

بعدئذٍ لم يرهما أحد. لا فيليب دو بيلّون ولا الفتاة ذات الشعر الكستنائيّ الفاتح. كان ذلك، على الأرجح، خلال شتاء عام 1942.

راجعتُ كلّ عروض العمل التي وردت في كلِّ الصحف خلال ذلك الشتاء:

مطلوب بضعة شبّان لا يُشترط امتلاكهم أيّ خبرة أو تخصُّص، لعمل حسن الأجر. المكاسب فوريّة. مراسلة دلبار أو إيتيف، فندق بالتيمور، 88 مكرّر، جادّة «كليبير»، الدائرة السادسة عَشْرة، أو الحضور شخصيًّا إلى العنوان عينه ابتداءً من الساعة السابعة مساءً.

أذكر فندق «دو بلجيكا»، جادّة «ماجنتا» قبالة «محطّة الشمال». أقام أبي في تلك الناحية خلال طفولته. وأمّي وصلت إلى باريس للمرّة الأولى، عبر «محطّة الشمال».

شعرت اليوم برغبة في العودة إلى تلك الناحية، غير أنّ «محطّة الشمال» بدت لي بعيدة فأحجمت. فندق «دو بلجيكا»... كنتُ في السادسة عشرة عندما انتهينا، أمّي وأنا كالمتشرّدين، ذا يوم من شهر يوليو، في محلّة «كنوك-لو زوت». حينذاك، تلطّف بعض أصدقائها باستقبالنا.

تابعنا على تيليجرام اضغط هنا

تابعنا على فيسبوك اضغط هنا

ذا مساء، كنّا نتنزّه نحن الاثنين، عند سدّ «ألبر-بلاج» الكبير. كنّا قد اجتزنا الكازينو ومِنطقة الكثبان التي يمتدّ بعدها سدّ «هايست-سور-مير». هل مررنا بفندق «المنارة»؟ في طريق عودتنا، عبر جادّة «إليزابيث»، لاحظتُ عددًا من الفيلّات المهجورة ربّما أقام في إحداها جَدًّا فيليبّي دي باشيكو.

مساء البارحة، استصحبتُ ابنتي إلى ناحية «غوبلان». في طريق العودة، سلكت سيّارة الأجرة شارع «لا سانتيه»، حيث مررنا بأحد تلك المقاهي التي تحمل لافتاتها عبارات: «خشب، فحم، مشروبات روحيّة»؛ كان المقهى مضاءً بأنوار خضراء. عند جادّة «آراغو» لم أتمكّن من إشاحة النظر هنيهةً واحدة عن سور السجن المعتم الذي لا ينتهي. هناك، كانت تُنصب المقصلة في ما مضى. مجدّدًا، فكّرتُ في أبي وهو يخرج من معتقل الـ«كي دو لا غار»، وفي بانيون الذي جاء، بالتأكيد، لاستصحابه في تلك الليلة. كنتُ أعلم بأنّ بانيون اعتُقل بدوره في «لا سانتيه» عام 1941، قبل أن يطلق سراحه هنري، قائد «عصابة شارع لوريستون».

كانت سيّارة الأجرة قد بلغت «دانفير-روشرو» وسلكت الجادّة التي تحاذي مستشفى «سان-فنسان-دو-بول»، والـ«أوبسرفاتوار» ومكتب الـ«لونجيتود»، لتتّجه نحو الـ«سين». في أحلامي، غالبًا ما أسلك هذا المسار: أغادر معتقلًا قد يكون مستودع الـ«كي دو لا غار» أو «لا سانتيه». الوقتُ ليل. أحدٌ ما ينتظرني في سيّارة ذات مقاعد جلديّة. نغادر محلّة المستشفيات والأديرة، وأسواق النبيذ

والجلود والسجون هذه، سالكين باتّجاه الـ«سين». لحظة بلوغنا الضفّة اليمنى، بعد اجتيازنا جسر الـ«كاروسيل» ونوافذ تذاكر «اللوفر»، أتنفّس الصعداء، إذ لم يعد هناك ما أخشاه. بذلك نكون قد غادرنا نطاق الخطر. أعلم جيّدًا أنّ هذا الارتياح مؤقّت، ولا بدّ من أنّني سأُستجوَب. ينتابني شعور بالذنب لا أدرك مصدره: جريمة تواطأتُ على ارتكابها أو كنتُ شاهدًا عليها، لا أدري بالضبط. آمُل أن يُجنّبني هذا اللبس العقاب. ماذا يعني هذا الحلم في الحياة الحقّة؟ هل له صلة بالذكرى التي أحتفظ بها عن أبي، زمن الاحتلال، عندما واجه موقفًا ملتبسًا هو أيضًا: اعتُقل خلال مداهمة قامت بها الشرطة الفرنسيّة، بتهمة يجهلها، ومن ثَمَّ أُطلق سراحه على يد فرد من «عصابة شارع لوريستون». كان هؤلاء يستخدمون سيّارات فخمة هجرها مالكوها في يونيو العام 1940؛ هنري يتنقّل في سيّارة بنتلي بيضاء تخصّ الدوق دو كادافال، وبانيون في سيّارة لانسيا عهد بها الكاتب الألمانيّ إريك ماريا ريمارك، قبل سفره إلى أميركا، إلى صاحب مرأب في شارع «لا بوييسي». الأرجح أنّ بانيون جاء لاستصحاب أبي في اللانسيا المسروقة من ريمارك. أيّ إحساس غريب أن تُغادر «الحفرة» – كما يسمّيها أبي – لتجد نفسك في إحدى السيّارات الفخمة العابقة برائحة المفارش الجلديّة وهي تعبر باريس متمهّلة باتّجاه الضفّة اليمنى بعد حظر التجوال... ولكن، عاجلًا أم آجلًا، ستخضع للمساءلة.

هذا الحلم الذي غالبًا ما يُراودني وأراني فيه عابرًا بالسيّارة من الضفّة اليسرى إلى الضفّة اليمنى، في ظروف مريبة، عشته أنا أيضًا عندما هربت من المدرسة في يناير العام 1960، وكنتُ لا أزالُ في الرابعة عشرة والنصف من عمري. أقلّتني الحافلة من «كروا دو بيرني» حتّى بوّابة «أورليان»، فترجّلتُ منها أمام مقهى الـ«روتوند» الذي يحتلُّ أسفل أحد مباني الضواحي المحيطة. خلال أيّام العطل القليلة التي كُنّا نخرج فيها من المدرسة، كان علينا التجمُّع نهار الاثنين عند السابعة صباحًا، أمام مقهى الـ«روتوند»، في انتظار الباص الذي يعيدنا إلى المدرسة. أمّا المدرسة فكانت أشبه بإصلاحيّة باذخة ومترفة للمنحرفين وحثالة الأُسَرِ الثريّة، والأبناء الطبيعيّين للنساء الملقّبات آنـذاك بـ«الواضعات»، أو الأولاد المتروكين خلال إقامة عابرة في باريس كما تُترَك الحقائب الفائضة: مثل زميلي في المهجع، البرازيليّ ميلّو رودريغز، الذي انقطعت أخبار عائلته منذ عام... ولِتَلْقِيننا أصول النظام والانتظام التي لم تُفلح «أُسَرُنا» في تربيتنا عليها، كانت الإدارة تلجأ إلى تطبيق نظام شبه عسكريّ: مشي منتظم ضمن صفوف متراصّة، تحيّة العلم عند الصباح، عقوبات بدنيّة، تأهُّب، تفتيشات

مسائيّة في المهجع، والعدْو المتكرّر حول ملعب «إيبير» بعد ظهر أيّام الخميس...

ذلك الاثنين، في 18 يناير 1960، سلكتُ الطريق بالعكس: من مقهى الـ«روتوند» والذي لطالما بدا كئيبًا صباحات الاثنين الشتائيّة في أثناء عودتنا إلى «الحفرة» عبر «مونروج» و«مالاكوف»، ركبتُ المترو حتّى «سان-جرمان-دي-بريه». عند «مالافوس»، قالت الدانماركيّة:

– كأس من الويسكي لعزيزي الصغير...

ابتسم النادل، من وراء البار، وأجاب:

– لا نقدّم الكحول للقاصرين، آنستي.

جعلتني أشربُ جرعةً من كأسها. أحسستُ بمذاقِ الويسكي مُرًّا، غير أنّه وهبني الجرأة على الاعتراف بأنّني لا أستطيع العودة إلى منزلي، لأنّ والدَيَّ متغيّبان طوال الشهر.

– ما عليك إذًا إلّا أن تعود إلى مدرستك، قال لي الرجل الذي يضع نظّارة سوداء ويدخّن سجائر بلفافات الذرة.

شرحتُ لهما أنّ هذا مستحيل: الهروب من المدرسة يعاقب فورًا، بالطرد... وسيرفضون استقبالي.

– ولا أحد في البيت؟

– لا أحد.

– ولا يمكن الاتّصال بوالديك؟

– لا.

– ولا تملك مِفتاحًا لبيتك؟

– لا.

– سوف أتولّى أمر هذا الصغير، قالت الدانماركيّة.

وضعت يدها على كتفي. استأذنّا وغادرنا «مالافوس». كانت سيّارتها مركونة على مقربة من ضفاف الـ«سين»، بعد معهد

الفنون الجميلة: بيجو 203، كحليّة بمقاعد من الجلد الأحمر. أذكر هذه السيّارة جيّدًا. لمحتها مرارًا، في الناحية، أمام فندقَي لويزيان ومونتانا.

جلستُ بجانبها على المقعد. وأقلعَت بسرعة مفاجئة.

– لا بُدَّ من أحد يعتني بك، قالت بنبرة وديعة.

سرنا بمحاذاة الأرصفة واجتزنا الـ«سين» عبر جسر الـ«كونكورد». لطالما تنفّست الصعداء فور وصولي إلى الضفّة اليمنى، وكأنّ النهر هو الحدّ الذي يحميني من داخل بارد وشبه معاد. كنّا قد ابتعدنا عن مقهى الـ«روتوند» وعن «كروا دو بيرني» وعن المدرسة... غير أنّني لم أكفّ عن التفكير في المستقبل بكثير من القلق، فقد بدا لي أنّني ارتكبت خطأ لا رجوع عنه.

– أتعتقدين أنّ الأمر خطير؟ سألتها.

– أيّ أمر؟

والتفتت إليّ.

– لا، لا يا عزيزي الصغير... سوف نتدبّر الأمر...

كانت لكنتها الدانماركيّة تشعرني بالاطمئنان. سلكنا درب الـ«كور لا رين» وقلتُ في سرّي إنّني أستطيع على الأقلّ، أن أتّكل عليها.

– سيبلغون الشرطة...

– هل تخاف الشرطة؟ ابتسمت وهي ترمقني بعينيها الزرقاوين البرّاقتين. اطمئنّ يا صغيري...

بحّة صوتها الهادئة بدّدت قلقي. كنّا قد بلغنا ساحة «ألما» ونسير على امتداد الجادّة صعودًا نحو الـ«تروكاديرو». إنّه الخطّ الذي يسلكه الباص 63 الذي كنّا نستقلّه أنا وأخي للذهاب إلى الـ«بوا دو بولوني»، ونمكث على عتبته أيّام الصحو.

لم تنعطف يمينًا لتسلك الجادّة المظلّلة بالأشجار التي يعبرها الباص 63، بل ركنت السيّارة أمام المباني الحديثة الشاهقة عند مداخل جادّة «بول-دومير».

– هنا مسكني.

عند الطابق الأرضيّ، سلكنا ممشًى طويلًا تُنيره لمبات النيون. كان طيف ملتحف بمشمّع ينتظر أمام بابها. رجل أسمر طويل ذو شاربين رفيعين، تتدلّى من زاوية شفتيه سيجارة. هو أيضًا، كنتُ قد صادفته مرارًا في شوارع «سان-جرمان-دي-بريه».

– لم يكن المِفتاح معي، قال.

ابتسم لي بشيء من الدهشة.

– إنّه رفيقي، قالت مشيرة إليّ.

– تشرّفنا، قال وهو يصافحني.

قالت:

– ستذهب في نزهة يا عزيزي الصغير... عُدْ بعد ساعة... سأدعوكَ هذا المساء إلى المطعم وبعد ذلك إلى السينما...

فتحت الباب ودخلا. ثمَّ أطلّت من خلاله وقالت:

– لا تنسَ رقم الغرفة متى عدت. 23.

وأشارت بإصبعها إلى الرقم 23 المذهّب على خشبِ الباب الفاتح.

– عُدْ بعد ساعة... هذا المساء سنذهب الى «مونمارتر» إلى الـ«سان-كريستوبال» لتحلو أوقاتنا...

بدَت لكنتها الدانماركيّة أكثر رقّة ونعومة لاستخدامها تلك الألفاظ العامّيّة التي عفا عليها الزمن.

أغلقَت الباب. لبثتُ هنيهات واقفًا في الممشى. بذلتُ جهدًا لئلّا أطرقَ الباب. غادرتُ المبنى بِخُطًى متمهّلة ومنتظمة، ذلك أنّني

شعرتُ بالهلعَ يستبدّ بي مُجدَّدًا. خلتُ أنّني مهما فعلتُ، لن أتمكّن من اجتياز ساحة الـ«تروكاديرو». بعد جهد جهيد، أقنعتُ نفسي بألّا أقصد أوّل مركز شرطة للاعتراف بما اقترفته. لا؟ ذلك سيكون ضربًا من الحماقة. إن فعلت، سيقتادونني إلى «إصلاحيّة» حقيقيّة أو ما يُسمّونه «مركز تأهيل». لكن، هل ينبغي حقًّا أن أثق بالدانماركيّة؟ ربّما كان عليّ المكوث عند رصيف جادّة «بول دومير» لأرى إن كانت سترحل. ذاك الأسمر ذو المشمّع الذي اختلى بها قد يقنعها بأن تَعدِل عن إيوائي والاعتناء بي. الغرفة 23. يجب ألّا أنسى هذا الرقم. ما زال أمامي ثلاثة أرباع الساعة. حتّى ولو عدتُ ولم أجدها فسأنتظرها بعيدًا عن الأنظار عند مدخل العمارة، ريثما تعود.

كنتُ أحاول طمأنة بالي وأنا أقلّب كلّ هذه الأفكار. عند الجهة المقابلة من الساحة، موقف الباص 63. هل لديّ متّسع من الوقت للذهاب إلى الـ«بوا دو بولوني» فالعودة منه؟ ما زالت بحوزتي عشرة فرنكات. غير أنّني أخشى أن أكون وحدي في الباص، ووحدي عند مرجة «لا مويت» أو عند ضفّة البحيرة، تلك الأماكن التي كنت أقصدها، لأعوام خلت، بصحبة أخي. فضّلتُ أن أسلك طريق الفناء المشرف على باريس. هبطتُ ممرّات الحديقة المنحدرة المغمورة بشمس الشتاء الخجولة. لم أرَ أحدًا. شعرتُ بتحسُّن. ما فوقي، نوافذ القصر العملاقة وأروقته. خُيِّل إليّ أنّ ردهات الداخل وأروقته، مُقفرة هي أيضًا، مثل الحدائق. أردتُ أن أجلس على أحد المقاعد. لكن، ما لبث أن أعاد جمودي هذا نوبةَ الهلع. نهضت وتابعت سيري عبر الممرّات باتّجاه الـ«سين».

وصلت إلى مدخل الأكواريوم. ابتعت تذكرة. شعرت وكأنّني أدخلُ إلى محطّة مترو. أسفل الدرج يسوده ظلام مُطَمْئِن. في الصالة التي دخلتها، فقط الأحواض مُضاءة. شيئًا فشيئًا، رحتُ أستعيد هدوئي

في كنف تلك العتمة. لقد استوت كلّ الأمور نافلةً في عينيّ. كنتُ هناك بعيدًا عن كلّ شيء، أهلي والمدرسة وصخب الحياة التي لا ذكرى جميلة منها سوى رقّة ذلك الصوت الهامس ذي اللكنة الدانماركيّة... دنوت من الأحواض. كانت الأسماك ذات ألوان فاقعة كألوان السيّارات المُتصادمة في طفولتي: زهريّة وزرقاء ولازورديّة وخضراء وزمرديّة... لا تحدث ضجّة. تنزلق على طول الجدران الزجاجيّة. تَفتَحُ أفواهها من دون أن يصدر عنها صوت بل فقط من حين لآخر، فقّاعات تصعد إلى سطح المياه. لن يُسائلني أحد منها أبدًا.

هناك، عند رصيف جادّة «هنري مارتان»، فكّرت أنّ أُمسيّات الآحاد في الشتاء كئيبة في النواحي الغربيّة، كما هي في نواحي «أورسولين» أو ساحةِ الـ«بانتيون» عندما يلفحها الصقيع.

أحسستُ بثقل بين ضلوعي، زهرة تكبر بتلاتُها وتحبس عنّي الهواء. كنتُ مُسمّرًا بالأرض. من حسن طالعي أنّ وجود ابنتَي معي يُعيدني إلى الحاضر. وإلّا كانت أُمسيّات الآحاد الغابرة – وما يتخلّلها من عودة إلى المدرسة الداخليّة واجتياز الـ«بوا دو بولوني» ومراتع الخيل التي أزيلت من «نويي»، ونوّاصات المنامة – لَتُغرقني بروائح أوراق الأشجار اليابسة. عدد من النوافذ المضاءة في بعض المباني بدت لي كنوّاصات أُشعِلَت منذ ثلاثين عامًا ونُسيَت على غفلة في شققها المهجورة.

عاودتني ذكرى جاكلين وكأنّها انبثقت من بقع مياه المطر والأضواء المتألّقة سدى من نوافذ العمارات. أجهل إن كانت لا تزال حيّة تُرزق في مكانٍ ما. التقيتها للمرّة الأخيرة منذ أربعة وعشرين عامًا، في ردهة محطّة «غار دو لويست» في فيينّا. كنت أهمّ بمغادرة تلك المدينة عائدًا إلى باريس، لكنّها شاءت أن تبقى هناك. أحسبُ

أنّها مكثت لبعض الوقت في غرفة الـ«تاوبستومغاسه» خلف كنيسة «سان-شارل» قبل أن ترحل بدورها بحثًا عن مغامرات جديدة.

أتساءلُ أين أصبح اليوم بعض معارفي في تلك الفترة. أحاول أن أتخيّل المدينة التي قد أصادفهم فيها. أعلم أنّهم غادروا باريس نهائيًا. أفكّر في روما حيث لا بدّ من أن ينتهي بنا المطاف. هناك حيث توقّف الزمن كما توقّف في ساعة حدائق «كاروسيل» طفولتي.

في ذلك الصيف، كنّا نُقيم منذ أشهر متعدِّدة في مدينة غريبة أخرى، في فيينا، وفي نيّتنا أن نمكث فيها نهائيًا. ذات ليلة، في جوار «غرابين»، دخلنا إلى مقهى بابه هو أيضًا باب أحد المباني. كانت ردهة مدخله تفضي إلى صالة كبيرة ذات أرضيّة رماديّة تُشبه صالة رقص أو بهو فندق متروك أو حتّى مقصف محطّة قطار، مُضاءة بأنابيب من النيون مثبّتة في الجدران.

كنت قد اهتديت إلى هذا المكان بمحضِ المصادفة خلال نزهة من نزهاتي. جلسنا إلى إحدى الطاولات المرصوفة صفوفًا وبينها ممرّات رحبة. لم يكن هناك سوى ثلاثة روّاد أو أربعة يتحادثون بأصوات خافتة.

كنتُ أنا بالطبع مَن استدرج جاكلين، ذلك المساء، إلى مقهى «راب». غير أنّ تلك الشابّة التي كانت في مثل سنّي، موهوبة باجتذاب الأشباحِ. في باريس، حيث لمحتها للمرّة الأولى مساء يوم أحد، كانت بصحبة أشخاص مُريبين... والآن، في مقهى «راب»، أيّ طينة من الناس ستجتذب؟

دخل رجل. كان يرتدي سترة توبد. اتّجه بمشيته العرجاء نحو البار في مؤخّر الصالة، صبَّ لنفسه زقَّ ماء وكأسًا من المشروب ثمّ عاد أدراجه بمشيته المتعثّرة، ليجلس إلى طاولة مجاورة.

تساءلت ما إذا كان صاحب المقهى. لا بدّ من أنّه تناهت إلى مسامعه شذرات من أحاديثنا، إذ التفت إلينا وسأل:

– فرنسيّان؟

بدا كلامه مشوبًا بلكنة خفيفة. ثمّ ابتسم، وعرّفنا إلى نفسه:

– رودي هايدن...

كنتُ قد سمعت بهذا الاسم من قبل بدون أن أعرف صاحبه. بدا وجهه ذو القسمات المتناسقة أشبه بوجه ممثّل سينمائيّ. لوهلة، لفتني الاسم، رودي. إنّه اسم أخي، إضافةً إلى ما يستدعيه من صور رومنسيّة: مايرلينغ، جنازة فالنتينو، أحد أباطرة النمسا الذي كان يشكو اكتئابًا في زمن غابر.

تبادلنا ورودي هايدن بعض عبارات اللياقة كمسافرِين غرباء يلتقون حول مائدة في مطعم حافلة قطار. أخبرنا بأنّه عاش في باريس ولم يَعُد إليها منذ زمن بعيد وأنّه مشتاق للعيش مجدّدًا في تلك المدينة. حيّانا بانحناءة متكلّفة من رأسه حين هممنا بمغادرة المقهى.

علمتُ في ما بعد أنّه كان من أبرز حرّاس المرمى في تاريخ كرة القدم. حاولتُ أن أعثر على صور له ولأصدقائه النمساويّين ذوي الأسماء الرنّانة، الذين كانوا يلعبون ضمن فريق فيينّا «ووندرتيم» والذين سحروا بمهاراتهم جماهير المدرّجات. لقد اضطُرّ رودي هايدن إلى أن يعتزل كرة القدم. أدار ملهًى ليليًّا في شارع «ماجيلّان» في باريس، ثمّ حانة في شارع «لا ميشوديير». كان قد أُصيب بكسر في ساقه. بالنهاية، عاد إلى فيينّا مسقط رأسه، حيث عاش حياة المتشرّدين.

وكأنّني أراه الآن تحت ضوء النيون في مقهى «راب»، سائرًا نحونا بمشيته العرجاء. أهي محض مصادفة أن تستوقفني عبارة من إحدى رسائل سكوت فيتزجيرالد لتذكّرني به: «إنّني لواثق من أنّ الملاكمين المحترفين والممثّلين والكُتّاب الذين يعتاشون من مواهبهم، يجب أن يعهدوا بأمورهم، وهم في ذروة إنتاجهم، إلى

وكلاء يُديرون أعمالهم. ذلك أنّ طابع الموهبة الزائل بعيدًا كلّ البعد عنّا، أمرٌ غريبٌ عنّا يكمُن طيّ سرٍّ من أسرار كِياننا، إلى حدّ ينبغي معه، كما يبدو، أن يُوكَل إلى عناية مؤتَمَن موثوق أكثر بكثير من ذلك الإنسان البائس الذي يحتضنه، والذي في نهاية المطاف، سيدفع ثمنه باهظًا».

وأن نلتقي مُجدَّدًا في مقهى «راب».

تعرّفتُ بجاكلين مساء يوم أحد في باريس، في الدائرة السادسة عشرة. غريب أمر هذه الدائرة، فكلود برنار مثلًا، الذي لطالما أردتُ الاطّلاع على سجلّه العدليّ لأعرف المزيد عن ذاك الرجل الذي التقيته في التاسعة عشرة من عمري، غالبًا ما يتردّد إلى مطاعم هذه المحلّة غرب باريس. وكذلك كان أفراد «عصابة شارع لوريستون». أمّا بانيون فقد كان يُقيم في شقّة مفروشة باذخة تقع عند 48 مكرَّرًا من شارع «بيل-فوي». كان يتردّد إلى مراتع الخيل في «نويي» وحتّى مضمار الـ«سيركل دو ليتريبه»، في الـ«بوا دو بولوني»، الذي حجزه بعد ظهر يوم بوساطة هنري لكي يتسنّى لعشيقته أن تمتطي الخيلَ وحدها من دون أن يزعجها أحد...

حاولتُ جاهدًا أن أُنقّب في ذاكرتي عن تفاصيل ترتبط بالدائرة السادسة عشرة، فلم أجد سوى شقق خالية وكأنّها تعرّضت للمصادرة: تمامًا مثل ردهة الاستقبال في شقّة سيمون كورديبه.

كانت تُمطر مساء ذلك الأحد. كُنّا في شهر أُكتوبر أو ربّما نوفمبر. كلود برنار قد ضرب لي موعدًا لتناول العشاء في مطعم في شارع «لا تور». كنتُ قد بعته عشيّة ذلك اليوم مجموعة أعمال

بالزاك الكاملة – طبعة «فوف هوسيو». وصلتُ إلى الموعد قبله. لم يكن هناك سواي، فانتظرتُ في صالة صغيرة ذات ديكور من الخشب الفاتح. صور لجوكيّة وكبار مُدرّبي الفروسيّة ممهورة بمعظمها بعبارات الإهداء، تُزيّن الجدران.

دلف ثلاثة أشخاص إلى المطعم بصخب: رجل أشقر خمسينيّ، طويل القامة وقويّ البنية، يرتدي سترة صيد متلفّعًا بوشاح؛ ورجل أسمر أصغر سنًّا وأقصر قامة منه، وشابّة في مثل سنّي، كستنائيّة الشعر فاتحة العينين، ملتحفة بمعطف فرو. اقترب منهم صاحب المطعم مُبتسمًا:

– ما الأخبار؟

رمقه الأسمر القصير بنظرات ظفر.

– فيرزون-باريس في ساعة وربع الساعة... كانت الطريق خالية... 150 كيلومترًا في الساعة كمعدّل... لقد أُصيبا باليرقان لشدّة ذُعرهما...

أشار بيده إلى الشابّة والرجل الأشقر الذي يرتدي سترة صيد. هزّ هذا الأخير كتفيه.

– يحسب نفسه بطل سباق. ينسى أنّني شاركت، وأنا في سنّ العشرين، في سباقات إلى جانب ويميل وسومير...

قهقه الرجال الثلاثة. أمّا الشابّة فبدت مستاءة. اختار لهم صاحب المطعم طاولة قبالة طاولتي. لم يلحظوا وجودي. جلس الرجل الأسمر وقد أولاني ظهره، أمّا الآخر فجلس بجانب الشابّة على المقعد العريض. لم تخلع معطف الفرو. رُنَّ جرس الهاتف. كان جهاز الهاتف على منضدة البار إلى يميني.

– مخابرة لك سيّدي...

ناولني صاحب المطعم السمّاعة. نهضتُ. اتّجهتْ أنظار الثلاثة نحوي. حتّى إنّ الأسمر استدار قليلًا. كان كلود برنار يعتذر عن عدم

تمكُّنه من المجيء. لقد «احتُجز» – بحسب تعبيره – في بيته في جزيرة الذئاب، بسبب زيارة مفاجئة. سألني إن كنت أحمل ما يكفي من المال لتسديد فاتورة عشائي. لحسن حظّي كنت قد احتفظت في جيب سترتي الداخليّ بالثلاثة آلاف فرنك ثمن مجلّدات بالزاك. عندما أقفلتُ السمّاعة، التقت نظراتي بنظرات الشابّة. لم أجرؤ على مغادرة المطعم بلا عشاء، لأنّني مرغم على استرداد معطفي والذي علّقه أحد النُدُل في حجرة الملابس في مؤخّر الصالة.

عدتُ مرارًا إلى ذلك المكان. وحدي أو بصحبة كلود برنار. كان هذا الأخير يُبدي دهشته حيال إصراري في التردّد إلى شارع «لا تور»، لكنّني أردتُ فقط أن أعرف المزيد عن تلك الشابّة التي لم تخلع معطف الفرو يومًا وتبدو مستاءة على الدوام.

كلَّ يوم أحد، يدلفون إلى صالة المطعم بجلبتهم المعتادة نحو التاسعة والنصف ليلًا. أربعة أشخاص أو خمسة، وأحيانًا أكثر. يتحادثون بصخب. أمّا صاحب المطعم فيُعاملهم بمودّة واحترام. تجلس الشابّة معهم، مُستقيمة الظهر، ودائمًا بجانب الرجل الأشقر ذي سترة الصيد. تلزم الصمت. تبدو ساهية. معطفها الفرو يتنافر وطلعتها الفتيّة.

«فيرزون-باريس في ساعة وربع الساعة... كانت الطريق خالية...» كم يبدو بعيدًا صدى تلك العبارات التي سمعتها الأحد الأوّل؛ أجدني مجبرًا على الإصغاء مُنصِتًا لكي أستعيده. فالأعوام تحجبه بهسهستها المشوّشة... «فيرزون»... كانوا عائدين من «سولوني» حيث يمتلك الأشقر ذو سترة الصيد قصرًا وأراض. كان يحمل لقب ماركيز. في ما بعد، عرفت بأنّ اسمه يُذكّر بنبلاء يافعين من رعايا بلاط الـ«فالوا»، نحيلي الخصر، وبالجنّيّة «مورغان» التي تزعم أسرة ذاك الأشقر أنّها تتحدّر منها.

غير أنّني ما كنت أرى أمامي سوى رجل ذي وجه فظّ ونبرة لزجة، فأشعر بضيقٍ مشابه لما شعرتُ به، بعد ذلك بأعوام، عندما سمعتُ إحدى المحادثات بين تجّار بالعمولة ومتعهّدي نقل لحوم، في نزل بجوار باريس: كانوا يتحدّثون عن صيّادين مخالفين يمدّونهم بطرائد مهرّبة من الغزلان والأيائل، وحمولات ليليّة إلى جزارات لحم الخيل. كانت أسماء الأمكنة التي تخدم مسرحًا لعمليّاتهم، تلك الأسماء الرنّانة والتي لطالما أنشدها نيرفال: «كريبي أن فالوا»، «مورتفونتين»، «لوازي»، «لا شابيل أن سيرفال»...

كانوا عائدين إذًا، من «سولوني»، فالماركيز يَرْئِسُ فريقًا من الخيّالة الصيّادين الذين «تُفرَدُ» كلابهم – أدهشني استخدامهم هذا المصطلح – في غابة «فيرزون». كان يُطلق على ذلك السباق اسم «سولوني-مستنقع مينيهو». أمّا أنا فأتخيّل ذلك المستنقع عند تخوم درب مظلّلة بالأشجار ساعة الغروب، وفي البعيد، سمفونيّة أبواق الصيد يختلج لها قلبي. تأسِر عينيَّ انعكاسات المياه الراكدة الضاربة إلى الأحمر الدافىء، ووريقات عرائس النيل، وأغصان الأَسَل. ثمّ شيئًا فشيئًا تستحيل صفحةُ المياه إلى قتامة معتمة وأرى تلك الشابّة طفلةً عند ضفّة مستنقع «مينيهو»...

بعد سلسلة من الآحاد، صار صاحب المطعم يعرفني. ذات أُمسيَّة، انتهزتُ غياب الآخرين لأسأله عن الشابّة ذات معطف الفرو، وصِلَتِها بالماركيز الذي يكون دائمًا بصحبتها ويجلس كلّ مرّة بجانبها: «نسيبة له، فقيرة» قال لي وهو يهزّ كتفيه.

قريبة معوزة، متحدّرة، بالتأكيد، على غرار الماركيز، من أسرة عريقة غارت أصولها في ليل الزمان وفي قلب غابات الـ«إيل دو فرانس» و«سولوني»... كنت واثقًا من أنّها أمضت طفولتها في مدرسة داخليّة لدى السيّدات الأورسولينيّات في «بورج»، وأنّها الوريثة

الوحيدة لإحدى تلك الأُسر التي انقطع نسبها الذكوريّ والملقّبة بـ«مهرات ما وراء البحار»، كونها مكثت، بعد الحروب الصليبيّة، ولعدَّة قرونٍ، في القسطنطينيّة أو اليونان أو صقلية. بعد ذلك بزمن طويل، عاد أحد أسلافها إلى «سولوني»، إلى موطنه الأصليّ، ليرث أنقاض قصر على ضفاف مستنقع «مينيهو»، وبضعة أشجار زيزفون تتطاير في ظلالها خلال الصيف، فراشات كبيرة محوِّمة.

مساء يومِ أحد، كانت حَرِدة أكثر من المعهود، في معطفها الفرو. رحت أراقب من طاولتي محاولات الماركيز للترويح عنها: لامس ذقنها بسبّابته، لكنّها أشاحت بوجهها جافية كأنّها فُوجئت بمَلمس دَبِق. كنتُ أشاطرها تَقزُّزها: يدا الماركيز غليظتان، محمرّتان: يدا سفّاح تُذكّراني بعنوان شريط وثائقيّ: «دم الحيوانات». تضاف إليه اليوم ذكرى تلك المحادثة بين التجّار ومتعهدّي نقل اللحوم الذين يجوبون بقاع «نيرفال». كيف يجرؤ هذا الأشقر الضّخم الملتحف بسترة صيد على أن يدنِّس بيده وجهًا بمثل هذه الرقّة؟ ذا أحد، لاحظ كلود برنار اهتمامي بالفتاة فقال لي بلطف: «إنّها تُشبه جوان فونتين، الممثّلة المفضّلة عندي...».

لم يبدُ لي هذا الإطراء صائبًا تمامًا. ذلك أنّ جوان فونتين إنكليزيّة، بينما هذه الشابّة تمثّل في نظري، الصورة المثاليّة للمرأة الفرنسيّة كما كنت أتخيّلها في تلك الحقبة.

لاحظتُ، في ذلك المساء، جمهرة حول طاولتهم تفوق العدد المعتاد. بإمكاني أن أذكر بعض الأسماء: شخص يُدعى جان تيرّاي وقد تعرّف إليه كلود برنار ما بينهم خلال الأسبوع المنصرم، وهو رجل أسمر يتولّى إدارة فندق في شارع «فرنسوا بروميبه». وللمصادفة، تُفيد المعلومات التي جمعتُها بشأن بانيون بما يلي: «في العام 1943، استولى شخصيًّا بطرائق احتياليّة على ما يعادل 300 ألف

فرنك بالمارك الألمانيّ كان قد أودعها لديه المدعوّ جان تيرّاي لغايات تجاريّة». العالم الذي ينتمي إليه هؤلاء يوقظ فيَّ ذكريات من الطفولة: إنّه عالم أبي. منتحلو ألقاب ونصّابون. نبلاء بالصدفة. غنائم إصلاحيّات. «آنج لو ماكينيون» ذاك. ها أنا أنتشلهم لمرّة أخيرة من العدم قبل أن يعودوا إلى التلاشي في كنفه إلى الأبد.

اليوم، تبدو لي أُمسيَّات الآحاد تلك كذكريات غابرة، وكأنّما قرنًا كاملًا من الزمن مرّ عليها. كلّ المدعوّين إلى تلك الطاولة ماتوا، ولا ألتفتُ إليهم إلّا لأنّهم أحاطوا بجاكلين كطوق من المُخمَل المهترىء... «فيرزون-باريس في ساعة وربع الساعة... كانت الطريق خالية...» وينفتح باب المطعم على طلعتها، فتدلف من الخارج رائحة تراب رطب وزيزفون.

خلال العشاء، نهضَتْ بغتة. حاول الماركيز أن يستبقيها ممسكًا بكتفها. لكنّها غادرت طاولتهم، وبِخُطًى متراخية، خرجتْ من المطعم. لم يحرّك الماركيز ساكنًا. تظاهر باللامبالاة باذلًا ما بوسعه للمشاركة في الأحاديث الدائرة.

أمّا أنا فلم أكن قد طلبت عشائي بعد. نهضتُ بدوري. نازعٌ ما جذبني إلى الخارج. لقد انقضت أسابيع وأنا أُراقبها، ولم يُتح لي خلالها أن أنظر في عينيها.

كانت على بعد أمتار أمامي، على الرصيف. تسير بخطوها المتراخي. لحقت بها، فاستدارت. لبثتُ جامدًا في مكاني. تمتمتُ قائلًا:

– لقد... لقد تخلّيتِ عن أصدقائك؟

– أجل. لِمَ تسأل؟

رفعَت ياقة معطفها الفرو وأحكمتها حول عنقها. كانت عيناها ترمقانني بنظرات ساخرة.

– أظنّ أنّني أعرف أحد أصدقائك... من بعيد...

واصلت سيرها فتبعتُها متوجّسًا، وبي خشيةٌ من ردّ فعل غير مُستحبّ، لكنّها بدت مُطمئنّةً إلى صحبتي. سلكنا الطريق المسدود الذي تُظلّله عمارات من الجانبين ويُعرف بجادّة «رودان».

– إذًا، أنت تعرف أحد أصدقائي؟ أيّ واحد منهم؟

راحت تمطر فجأةً، فلجأنا إلى مدخل عمارة.

– الرجل الأشقر، قلت. الماركيز لا أدري ماذا.

ارتسمت ابتسامة على شفتيها.

– أتقصد الوغد العجوز؟

كان صوتها عذبًا، غامضًا بعض الشيء، وقد تلفّظت بهاتين الكلمتين بانسياب كامل. أدركتُ على الفور أنّني أخطأتُ في شأنها، وأنّ مخيّلتي قد أضلّتني. في أيّ حال، الأمور أفضل بكثير على هذا النحو. منذ تلك اللحظة، أصبحَت نِسبةً إليَّ «جاكلين من جادّة رودان»، وحسب.

انتظرنا انحباس المطر ثمّ قصدنا بيتها سيرًا على الأقدام. سلكنا شارع «لا تور» في خطٍّ مُستقيم. ثمّ جادّة «دوليسير»، ناحية «باسي»، حيث شُيّدت المباني طبقات متدرّجة باتجاه الـ«سين». أفضى بنا سلّم شديد الانحدار إلى الزقاقِ الذي يؤدّي إلى رصيف النهر. كان المصعد معطّلًا. حجرتان متاخمتان. في إحدى الحُجر سريرٌ ذو مسند من الساتان الأبيض المبطّن.

– سيأتي الوغد العجوز. أيزعجكَ أن نطفئ الضوء؟

دائمًا صوتها العذب الهادئ وكأنّ الأمور بديهيّة. كنّا جالسين جنبًا إلى جنب على الكنبة، في ما يُشبه العتم. لم تخلع معطفها الفرو. دنت بوجهها من وجهي.

– وأنتَ، ماذا تفعل في هذا المطعم مساء كلّ يوم أحد؟

باغتني سؤالها. ارتسمت على شفتيها ابتسامة ساخرة. وضعت رأسها على كتفي ومدّت ساقيها على الكنبة. كنتُ أتنشّق رائحة شعرها. لم أجرؤ على الحراك. تناهى إلى سمعي هدير محرّك سيّارة، في الأسفل.

– لا بدّ من أنّه الوغد العجوز، همست في أذني. مكتبة

نهضتْ وراحت تختلس النظر عبر النافذة. توقّف هدير المحرّك. رحتُ أختلس النظر بدوري. كان المطر غزيرًا. سيّارة إنكليزيّة سوداء ضخمة مركونة بمحاذاة الرصيف. الماركيز أمام مدخل العمارة بدون معطف أو مشمّع يقيه. غادرتِ النافذة لتجلس مجدّدًا على الكنبة.

– ماذا يفعل؟ سألتني.

– لا شيء. يقف تحت المطر.

لكنّه سرعان ما اتّجه إلى بوّابة المدخل. سمعتُ خطوَه الثقيل على السلّم. رُنَّ الجرس رنّتَين سريعتَين. أردفهما برنين طويل، فعدّة رنّات وجيزة. بعد ذلك راح يطرق الباب بعنف. كأنّه يودّ خلعه. ثمّ ساد الهدوء مجدّدًا وسمعتُ خطاه تبتعد وهو يهبط الدرج.

لم أغادر النافذة. اجتاز الشارع تحت المطر المنهمرِ بغزارة ووقف متّكئًا إلى حائط الدعمِ عند السلّم الذي هبطناه منذ بعض الوقت. لبث هناك، واقفًا، وقد أسند ظهره إلى الجدار، ورفع رأسه صوب واجهة العمارة. كانت سيول المطر تنصبّ عليه من أعلى السلّم وكانت سترته مبلّلة، لكنّه بقي بلا حراك. عندئذٍ شهدتُ ظاهرةً ما زلتُ، إلى اليوم، أحاول تفسيرها عبثًا: هل انطفأ المصباح الذي ينير السلّم من فوق، على نحو مباغت؟ ذلك أنّ الرّجل بدا متلاشيًا وكأنّه يذوب، تدريجًا، في الجدار. أو أنّ المطر، لشدّة انهماره عليه، قد محاه كما تمحو المياه أثر الطلاء الرطب. حاولتُ جاهدًا أن ألصق

جبيني بزجاج النافذة وأتفرّس في الجدار الرماديّ القاتم، فلم أجد أثرًا له. اختفى فجأةً على نحوِ ما سألحظه في ما بعد لدى أشخاص آخرين، مثل أبي، إذ يختفون فجأةً، تاركين لك الحَيرة والسَّعي وراء براهين وقرائن تثبت أنّهم قد وُجدوا حقًّا ذا يوم.

الربيع أبكر هذا العام. كان الطقس حارًّا للغاية خلال يومَي 18 و19 مارس من العام 1990. بين ليلة وضحاها استحالت البراعم وُرَيقات خضراء على شجر الكستناء ناحية الـ«لوكسمبورغ». أمام مدخل الحديقة، في شارع «غينيمير»، توقّفت الحافلات الملوّنة ليترجّل منها سُيّاح يابانيّون. ها هم يسلكون، في صفوف منتظمة، أحد الممرّات المفضية إلى تمثال الحرّيّة المنتصب عند حافّة مرجة، نسخة مصغّرة لنُصب نيويورك.

منذ قليل، كنتُ جالسًا على مقعد بجوار التمثال، فلَمحْتُ رجلًا ذا شعرٍ فضّيّ يرتدي بدلة من الأزرق السماويّ، ويسير في طليعة مجموعة من اليابانيّين. عندما توقّفوا قبالة التمثال، استرسل في شروح بلغة إنكليزيّة ركيكة مرفقة بإيماءات من ذراعَيه؛ اختلطتُ بمجموعةِ السُيّاح ورحتُ أراقب هذا الرجل منتبهًا لنبرة صوته، إذ خُيِّلَ إليَّ أنّه قد يكون باشيكو المزيّف الذي عرفته أيّام المدينة الجامعيّة. كان يحمل حقيبة بحمّالة موسومة بشعار شركة طيران TWA. لقد تقدّمتِ به السنّ. لكن، أهذا هو حقًّا؟ البشرة المسفوعة

عينها، كما رأيته لدى عودته من الدار البيضاء، والعينان الخاويتان لشدَّة زرقتهما.

دنوت منه. وددتُ أن أربِّت كتفه مقاطعًا خطابه، وأن أقول له باسطًا كفّي لمصافحته: «السيّد لومبار، على ما أظن؟».

التقط اليابانيّون صورًا تذكاريّة للتمثال، وعادت المجموعة من حيث أتَت عبر الممرّ المفضي إلى بوّابة شارع «غينيمير». كان الرجل الأشيب ذو البدلة الزرقاء السماويّة في الطليعة. شرع السُيّاح يصعدون إلى الحافلة المركونة بمحاذاة الشارع، فيما الرجل يحصي عددهم واحدًا تلو الآخر.

صعد بدوره إلى الحافلة وجلس بجانب السائق. كان يحمل ميكروفونًا بيده. لم تكن حديقة الـ«لوكسمبورغ» المحطّة الوحيدة وسوف يزورون جميع أنحاء باريس. وددت لو أتبعهم في صبيحة ذلك اليوم المشرقِ الذي حمل تباشير الربيع، ووددت لو أكون مجرّد سائح. ربّما أستردُّ المدينة التي فقدتُها، وأستعيدُ عبر جادّاتها، ذلك الإحساس بالخفّة واللامبالاة الذي لطالما راودني في ما مضى.

كنت قد بلغت العشرين من عمري عندما رحلت إلى فيينّا بصحبة «جاكلين من جادّة رودان». عاودتني ذكريات الأيّام التي سبقت رحيلي، ومن بينها ذكرى بعد ظهر يوم عند بوّابة «إيتالي». يومذاك عرّجت على مأوى صغير للكلاب عند طرف جادّة «إيتالي». لمحتُ في أحد الأقفاص كلب وجّار يرمقني بعينيه السوداوين، وقد مال رأسه قليلًا وانتصبت أذناه كأنّه يرغب في مبادلتي أطراف الحديث، منصتًا لكلّ عبارة قد أتلفّظ بها. أو أنّه، ببساطة، كان ينتظر ريثما أعتقه من سجنه: هذا ما فعلته بعد لحظات من التردُّد. لِمَ لا أصطحب هذا الكلب إلى فيينّا؟

جلستُ برفقته على شرفة أحد المقاهي. كنّا في شهر يونيو. لم يكن الطريق السريع الذي يحيط بباريس، والذي يشعرك بأنّك محاصر، قد أُنجز بعد. حينئذٍ كانت بوّابات باريس جميعها مجرّد حدود متلاشية، هاربة، والمدينة تحلّ قبضتها شيئًا فشيئًا لتتبعثر أنحاؤها في الأراضي البور. حينذاك، كنّا ما زلنا نؤمن بأنّ المغامرة تنتظرنا عند أوّل مفترق.

مكتبة

تابعنا على تيليجرام اضغط هنا

تابعنا على فيسبوك اضغط هنا

أزاهير الخراب — جلستُ على شرفةِ أحد المقاهي قبالة مدرّج «شارليتي»، ورحت أقلّبُ عددًا من الفرضيّات بشأن فيليب دي باشيكو الذي لم أرَ وجهه حتّى. كنتُ أدوّن بعض الملاحظات، ومن دون أن أُدرك تمامًا ماذا أفعل، شرعتُ في تأليفِ كتابي الأوّل. لم يكن دافعي رسالة حياة اخترْتها لنفسي ولا موهبة خاصّة حُبيتُ بها، بل كان ببساطة ذلك اللغز المتمثّل بحياة رجل من المؤكّد أنّني لن أعثر عليه، وكلّ تلك الأسئلة المحيطة به والتي لن أعثر على أجوبة لها. خلفي، يبثّ الجوك بوكس أغنية إيطاليّة، ورائحة إطارات مشتعلة تسودُ الأجواء. في فيء أشجار جادّة «جوردان»، شابّة جميلة تشقّ دربها. غرّتها الشقراء، وجنتاها وثوبها الأخضر كانت النسمات المنعشة الوحيدة، ظهيرة ذلك اليوم من أيّام أغسطس. ما الجدوى من السعي خلف ألغاز مُستعصية واقتفاء أثر الأشباح، حين تكون الحياة هنا أمامنا، ببساطتها، تحت الشمس الساطعة؟

«موديانو الملقّب ببروست الأزمنة الحديثة يكتب الرواية ذاتها كلّ مرّة ولكن مع بعض الفروقات.»

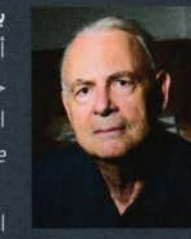

© MANTOVANI
© Gallimard via Leemage

باتريك موديانو — مواليد عام 1945، أحد أشهر كتّاب جيله من الفرنسيّين. حاز على جائزة نوبل في الأدب عام 2014 إضافةً إلى العديد من الجوائز الأخرى. أصدر روايته الأولى *La Place de l'Étoile* عام 1968.

من مؤلّفاته: «شوارع الحزام» (الجائزة الأدبية الفرنسية 1972)، «شارع الحوانيت المعتمة» (جائزة غونكور 1978)، «دفتر العائلة»، «صبية طيّبون»، «سيرك يمرّ»، «دورا برودير»، «مجهولات»، «حادث ليليّ»، «سلالة»، «مقهى الشباب الضائع»، «الأفق»، «عشب الليالي»، «حتى لا تتيه في الحيّ».

مكتبة 422

ISBN 978-614-438-606-4

نوفل هي دمغة الناشر

هاشيت أنطوان A.